



حقوق الطبع محفوظة للناسر

الطبعة الاولى.

١٤٠٧هـ . ١٩٨٦م

الدار السلفية

٦/٨ اى - حضرت تيرس انيكس

شارع شيخ حفيظ الدين

بومباى - ٤٠٠ ٠٠٨ الهند

هاتف : ٣٧٧٧٥٥ - ٣٩٦٧٤٧

تلکس : ٧٦٨٣٢ - ١١. سلفان

برقيا : «السلفية»

AL - DARUSSALAFIAH

6/8 - A, HAZRAT TERRACE ANNEXE,
SHAIKH HAFIZUDDIN ROAD
BYCULLA BRIDGE, BOMBAY - 400 008
TELEX . 011 76832 SALF IN
GRAM : «ALSALAFIAH»

فتاوى الأئمة الأربعة الأئمة الأربعة في كتب الظالمين

تأليف

شيخ الإسلام والشيخ الإمام والشيخ العلامة والشيخ العلامة

(٦٦١ - ٧٢٨ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨)

تفصيل وتعليق

الدكتور عبد الغني عبد الله عابد

عن بشره

الدرر السنية

بومباي الهند

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المسلمين وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته الى يوم الدين .

يسعدنا ان نقدم للقراء تحفة نادرة من درر مؤلفات شيخ الاسلام احمد بن عبدالحليم —ابن تيمية رحمه الله تعالى— وهى تفسير الآية الكريمة «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» التى قال فيها النبى ﷺ انها «دعوة اخى ذى النون . مادعاها مكروب الآ فرج الله كربته» .

وكلام شيخ الاسلام ردّ لسؤال وجهه اليه بعض الناس وكان السؤال يتضمن الاستيضاح عن ثمانى نواح تتعلق بهذه الآية وهى :

- ١ — ما معنى هذه الدعوة ؟
- ٢ — لم كانت كاشفة للضر ؟
- ٣ — هل لها شروط باطنة عند النطق بلفظها ؟
- ٤ — كيف مطابقة اعتقاد القلب لمعناها حتى يوجب كشف ضره ؟
- ٥ — ما مناسبة ذكره «انى كنت من الظالمين» مع ان التوحيد يوجب كشف الضر ؟

٦ — هل يكفى المذنب اعترافه بالذنب ام لابد من التوبة والعزم في المستقبل ؟

٧ — ماهو السرّ في ان كشف الضرّ وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق والتعلق بهم ؟

٨ — ما الحيلة في انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين والتعلق بهم بالكلية وتعلقه بالله تعالى ورجائه وانصرافه اليه بالكلية ؟ وما السبب المعين على ذلك ؟

وقد وضح شيخ الاسلام كل واحدة من هذه النقاط توضيحاً كاملاً ، وافاد واجاد . وتتجلى فيه خاصية اسلوبه الممتاز في الجدل والنقاش وهي كثرة الاستدلال بآيات القرآن وسردها لتدعيم مايقول ، والتركيز على مبدأ التوحيد .

والدار السلفية اذ تقدم هذا الكتيب المفيد تريد ان تؤكد لقرائها الكرام انها تحاول بكل مالدّ لها من الوسائل ان تزود المكتبة العربية والاسلامية بالكتب الدينية المفيدة وبخاصة من كتب تراث سلفنا الصالح اسهاماً منها في نشر الثقافة الاسلامية الصحيحة . وندعو الله تبارك وتعالى ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه ويوفقنا لمزيد من الاعمال النافعة ويقبلها منا .

ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم .

وصلّى الله على النبي الكريم .

الراجى عفو ربه
مختار احمد الندوى
الرئيس العام
لدار السلفية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سئل شيخ الاسلام

ابن تيمية — قدس الله روحه — عن قول النبي ﷺ :
« دَعْوَةُ أَخِي ذِي النُّونِ : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ ﴾ مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ كُرْبَتَهُ » ^(١)

مامعنى هذه الدعوة ؟ .

ولم كانت كاشفةً للكرب ؟

وهل لها شروطٌ باطنةٌ عند النطق بلفظها ؟

وكيف مطابقةً اعتقاد القلب لمعناها ، حتى يُوجِبَ كشفَ ضره ؟

ومامناسبةٌ ذكره : ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ مع ان التوحيد
يوجب كشفَ الضر ؟

وهل يكفيهِ اعترافه ام لابد من التوبة والعزم في المستقبل ؟

(١) الحديث أخرجه أحمد (١٧٠/١) والترمذي (٥٢٩/٥) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥٦)

والحاكم في «المستدرک» (٥٠٥/١، ٣٨٣/٢) من حديث سعد بن ابى وقاص .

وأخرجه البيهقي في «شعب الايمان» (رقم ٦٠٦ بتحقيقنا) وانظر تخريجه هناك .

وما هو السرُّ في أن كشف الضرّ وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق والتعلق بهم ؟

وما الحيلة في انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين والتعلق بهم بالكلية وتعلقه بالله تعالى ورجائه وانصرافه اليه بالكلية ، ما السبب المعين على ذلك ؟ .

﴿ فأجاب ﴾ الحمد لله رب العالمين .

معنى الدعاء

لفظ « الدعاء والدعوة » في القرآن يتناول معنيين :

دعاء العبادة .

ودعاء المسألة .

قال الله تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾^(٢)

وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾^(٣)

وقال تعالى :

(٢) سورة الشعراء (٢١٣/٢٦) .

(٣) سورة المومنون (١١٧/٢٣) .

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(٤)

وقال :

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ
لِبَدًا﴾^(٥)

وقال :

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا
شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾^(٦)

وقال تعالى :

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ
لِيَبْلُغَ قَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾^(٧)

وقال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾^(٨)

وقال في آخر السورة :

﴿قُلْ مَا يَغْبُوْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(٩)

(٤) سورة القصص (٨٨/٢٨) .

(٥) سورة الجن (١٩/٧٢) .

(٦) سورة النساء (١١٧/٤)

(٧) سورة الرعد (١٤/١٣)

(٨) سورة الفرقان (٦٨/٢٥)

(٩) ايضا (٧٧/٢٥)

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾^(١٤)

(المسألة والعبادة)

وكل سائلٍ راغبٍ راهبٍ فهو عابدٌ للمسئول ، وكل عابد له فهو ايضا
راغبٍ وراهبٍ يرجو رحمته ويخافُ عذابه ، فكل عابد سائل وكل سائل
عابد . فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرّده عنه ، ولكن إذا جمع بينهما
فانه يراد بالسائل الذى يطلبُ جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال
والطلب . ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر وان لم يكن في
ذلك صيغ سؤال .

(الخوف والرجاء)

والعابد الذى يريد وجه الله والنظر اليه هو ايضا راج خائف ، راغب
راهب : يرغب في حصول مراده ، ويرهب من فواته . قال تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
وَرَهَبًا ﴾^(١٥)

وقال تعالى :

(١٤) سورة البقرة (١٨٦/٢)

(١٥) سورة لانبيا (٩٠/٢١)

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾^(١٦)

ولا يتصور ان يخلوا داع لله — دعاء عبادة او دعاء مسألة — من الرغب والرهب ، من الخوف والطمع .

وما يذكر عن بعض الشيوخ انه جعل الخوف والرجاء من مقامات العامة ، فهذا قد يفسر مراده بان المقرين يريدون وجه الله فيقصدون التلذذ بالنظر اليه . وان لم يكن هناك مخلوق يتلذذون به ، وهؤلاء يرجون حصول هذا المطلوب ويخافون حرمانه ، فلم يخلوا عن الخوف والرجاء لكن مرجوهم ومخوفهم بحسب مطلوبهم .

ومن قال من هؤلاء :

« لم أعبدك شوقاً الى جنتك ولا خوفاً من نارك »

فهو يظن ان الجنة اسم لما يتمتع فيه بالخلوقات ، والنار اسم لما لاعذاب فيه الا المخلوقات ، وهذا قصور وتقصير منهم عن فهم مسمى الجنة ، بل كل ما عده الله لأوليائه فهو من الجنة ، والنظر اليه هو من الجنة ، ولهذا كان افضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيز به من النار ، ولما سأل بعض اصحابه عما يقول في صلاته قال :

انى اسأل الله الجنة واعوذ بالله من النار ، اما انى لأحسِنُ دُنْدَتَكَ وَلَا دُنْدَنَةَ معاذ فقال :

« حَوْلَهَا نُدِنْدِنْ »^(١٧)

(١٦) سورة السجدة (١٦/٣٢)

(١٧) أخرجه ابن ماجة في الاقامة (٢٩٥/١ رقم ٩١٠) وفي الدعاء (١٢٦٤/٢ رقم ٢٨٤٧) وابن خزيمة في «صحيحه» (٣٥٨/١ رقم ٧٢٥) من حديث ابى صالح عن ابى هريرة .

وأخرجه ابوداود في الصلاة (٥٠١/١ رقم ٧٩٢) وأحمد في «المسند» (٤٧٤/٣ ، ٧٤/٥) فلم يذكرها الصحابي .

وقد انكر على من قال هذا الكلام يعنى اسألك لذة النظر الى وجهك^(١٨) فريق من اهل الكلام ، ظَنُّوا ان الله لا يتلذذ بالنظر اليه ، وانه لانعم الا بخلق . فغلط هؤلاء فى معنى الجنة كما غلط اولئك ، لكن اولئك طلبوا ما يستحق ان يطلب ، وهؤلاء انكروا ذلك .

(العزائم تنفسخ عند وجود الحقائق)

واما التألم بالنار فهو امر ضرورى ، ومن قال : لو ادخلنى النار لكنت راضيا ، فهو عزم منه على الرضا ، والعزائم قد تنسخ عند وجود

(١٨) اخرج النسائى فى كتاب السهو من «المجتبى» (٥٤/٣) عن يحيى بن حبيب بن عربى قال حدثنا حماد بن زيد قال حدثنا عطاء بن السائب عن ابيه قال صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها ، فقال له بعض القوم لقد خففت او أوجزت الصلاة ؟ فقال : أنا على ذلك فقد دعوت فيها بدعوات سمعتن من رسول الله ﷺ فلما قام تبعه رجل من القوم — هو ابنى غير انه كنى عن نفسه — فسأله عن الدعاء ثم جاء فاخبر به القوم .

« اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أخينى ما علمت الحياة خيرا لى ، وتوفى اذا علمت الوفاة خيرا لى . اللهم واسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، واسألك كلمة الحق فى الرضا والغضب ، واسألك القصد فى الفقر والغنى ، واسألك نعيما لا ينفد ، واسألك قرة عين لا تنقطع ، واسألك الرضا بعد القضاء ، واسألك برد العيش بعد الموت ، واسألك لذة النظر الى وجهك والشوق الى لقاءك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضيلة .

اللهم رَئَيْنَا بزيينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين . »

واخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٥٢٤/١) وابن حبان (٥٠٩) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

واخرجه النسائى ايضا (٥٥/٣) من طريق ابى هاشم الواسطى ، عن ابى مجلز عن قيس ابن عباد قال صلى عمار... فذكره ، ورواه احمد فى «المسند» (٣٦٤/٤) .

ورجال هذا الاسناد ثقات رجال الصحيح .

ولا يلتفت الى انكار فريق من اهل الكلام لكلمات دعاء ثبتت عن النبي ﷺ .

الحقائق ، ومثل هذا يقع في كلام طائفة مثل سمنون^(١٩) الذي قال :

وليس لي في سواكَ حَظٌّ فكيف ماشئتَ فامتحنني

فابتلى بعسر البول فجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول : ادعوا
لعممكم الكذاب .

قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٢٠)

وبعض من تكلم في علل المقامات جعل الحبَّ والرِّضَا والخوف
والرَّجَاء من مقامات العامة بناء على مشاهدة القدر ، وإن من شهد
القدر^(١) فشهد توحيد الأفعال حتى فنى من لم يكن وبقى من لم يزل ، يخرج
عن هذه الأمور ، وهذا كلام مستدرك حقيقة وشرعا .

(ادعاء الصوفية المحو والفناء)

أما الحقيقة فإن الحيَّ لا يتصور أن لا يكون حساسًا مُحِبًّا لما يلائمه ،

(١٩) سمنون بن حمزة — ويقال سمنون بن عبدالله — ابولحسن الخواص .

سمى نفسه سمنونا الكذاب للواقعة المذكورة . صحب سريّا السقطي وأبا احمد القلانسي
وسوس ، وكان يتكلم في المحبة بأحسن كلام ، وهو من كبار مشايخ الصوفية في
العراق ، توفي بعد الجنيد .

ترجمته في «طبقات الصوفية» (١٩٥-١٩٩) ، «الحلية» (٣١٤-٣٠٩/١٠) ، «تاريخ
بغداد» (٢٣٧-٢٣٤/٩) ، «الرسالة القشيرية» (١٣٣/١) ، «البداية والنهاية» (١١٥/١١) .

(٢٠) سورة آل عمران (١٤٣/٣)

مبغضاً لما ينافره . ومن قال ان الحى يستوى عنده جميع المقدورات فهو احد رجلين : إما انه لا يتصور ما يقول بل هو جاهل ، وإما انه مكابر معاند ولو قدر ان الانسان حصل له حال أزال عقله — سواء سمى اصطلاماً او محواً او فناءً او غشياً او ضعفاً — فهذا لم يسقط احساس نفسه بالكلية ، بل له احساس بما يلائمه وما ينافره ، وان سقط احساسه ببعض الأشياء فانه لم يسقط جميعها .

فن زعم ان المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل الى مقام الجمع والفناء فلا يشهد فرقاً فانه غلط ، بل لابد من من الفرق فانه امر ضروري .

لكن اذا خرج عن الفرق الشرعى بقى فى الفرق الطبيعى ، فيبقى متبقياً لهواه لامطيقاً لمولاه .

ولهذا لما وقعت « هذه المسألة » بين الجنيد وأصحابه ذكر لهم « الفرق الثانى » وهو : ان يفرق بين المأمور والمحظور ، وبين ما يحبه الله وما يكرهه مع شهوده للقدر الجامع ، فيشهد الفرق فى القدر الجامع . ومن لم يفرق بين المأمور والمحظور خرج عن دين الاسلام .

وهؤلاء الذين يتكلمون فى الجمع لا يخرجون عن الفرق الشرعى بالكلية ، وان خرجوا عنه كانوا كفاراً من شرّ الكفار ، وهم الذين يخرجون الى التسوية بين الرسل وغيرهم ، ثم يخرجون الى القول بوحدة الوجود ، فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق ؛ ولكن ليس كل هؤلاء ينتهون الى هذا الاحاد ، بل يفرقون من وجه دون وجه ، فيطيعون الله ورسوله تارة ، ويعصون الله ورسوله تارة ، كالعصاة من اهل القبلة . وهذه الأمور مبسطة فى غير هذا الموضع .

(الدعاء عبادة ومسألة)

والمقصود هنا : ان لفظ « الدعوة والدعاء » يتناول هذا وهذا ، قال الله تعالى :

﴿وَأَخِرُ دَعَوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢١)

وفي الحديث :

« افضل الذكر لا اله الا الله ، وافضل الدعاء الحمد لله »

رواه ابن ماجة^(٢٢) وابن ابى الدنيا .

وقال النبي ﷺ في الحديث الذى رواه الترمذى وغيره :

« دعوة اخى ذى النون ﴿ لا إله إلا أنت سُبْحَانَكَ إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢٣) مادعا بها مكروب إلا فرج الله
كربته . »

سمها «دعوة» لأنها تتضمن نوعى الدعاء . فقوله ﴿ لا إله إلا أنت ﴾ اعتراف بتوحيد الالهية . وتوحيد الالهية يتضمن أحد نوعى الدعاء ، فان الاله هو المستحق لأن يُدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة ، وهو الله لا اله الا هو .

(٢١) سورة يونس(١٠/١٠)

(٢٢) اخرج ابن ماجة فى الادب(١٢٤٩/٢ رقم ٣٨٠٠) وابن ابى الدنيا فى «كتاب الشكر»(١١٣ رقم ١٠٢) كما اخرج الترمذى فى الدعوات(٢٦٢/٥ رقم ٣٢٨٣) والنسائى فى «عمل اليوم والليلة»(٨٣١) والحاكم فى «المستدرک»(٤٩٨/١-٥٠٣) وابن حبان فى «صحيحه»(٢٣٢٦) — موارد) والبغوى فى «شرح السنة»(٤٩/٥) وقال الالبانى : حسن .

والحديث فى «شعب الايمان» للبيهقى (الشعبة ٣٣) واستوفينا تخريجه هناك .

(٢٣) سورة الانبياء(٨٧/٢١)

وقد مرّ تخريج الحديث فى اول الكتاب .

(وجوه مختلفة للمسألة)

وقوله : ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ اعتراف بالذنب ، وهو يتضمن طلب المغفرة ، فان الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب ، وتارة يسأل بصيغة الخبر ، اما بوصف حاله ، واما بوصف حال المسؤول ، واما بوصف الحالين . كقول نوح عليه السلام :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٢٤)

فهذا ليس صيغة طلب ، وانما هو إخبار عن الله انه إن لم يغفر له ويرحمه خسر .

ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة ، وكذلك قول آدم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٢٥)

هو من هذا الباب ، ومن ذلك قول موسى عليه السلام :

﴿ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾^(٢٦)

فان هذا وصف لحاله بانه فقير الى ما أنزل الله اليه من الخير ، وهو يتضمن لسؤال الله انزال الخير اليه .

(٢٤) سورة هود (٤٧/١١)

(٢٥) سورة الاعراف (٢٣/٧) .

(٢٦) سورة القصص (٢٤/٢٨)

وقد روى الترمذى^(٢٧) وغيره عن النبي ﷺ انه قال :

« مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أُعْطِيَتهُ
أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ » .

رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

ورواه مالك بن الحويرث^(٢٨) وقال :

« مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتهُ أَفْضَلَ
مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ »

وأظن البيهقي رواه مرفوعاً بهذا اللفظ .

وقد سئل سفيان بن عيينة^(٢٩) عن قوله :

« أَفْضَلُ الدَّعَاءِ يَوْمَ عَرَفَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

(٢٧) في كتاب فضائل القرآن من «جامعه» (١٨٤/٥ رقم ٢٩٢٦) وفيه :

«من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى....»

والحديث أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٦٧-٥٦٨ بتحقيقنا) وراجع تخريجه
هناك .

(٢٨) الصواب مالك بن الحارث . وهو تابعى روى عنه منصور . وراجع «شعب
الإيمان» (رقم ٥٧٠)

(٢٩) انظر قول سفيان في «شان الدعاء» للخطابي (٢٠٧) ، و«فتح البارى» (١٤٧/١) وراجع
«شعب الإيمان» .

أما الحديث : أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة الخ فأخرجه الترمذى في
الدعوات (٥٧٢/٥ رقم ٣٥٨٥) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

وأخرجه مالك في «الموطأ» (٤٢٢) مرسلًا .

فذكر هذا الحديث وأنشد قول أمية بن ابى الصلت يمدح ابن جدعان .

أذكر حَاجَتِي ام قَدْ كَفَّانِي حَبَاؤُكَ؟ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْجَبَاءُ
إذا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَّاهُ مِنْ تَعْرِضِهِ الثَّنَاءُ
قال : فكذا مخلوق يخاطب مخلوقا فكيف بالخالق تعالى .

ومن هذا الباب الدعاء المأثور عن موسى عليه السلام :

« اَللّٰهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى ، وَاَنْتَ
الْمُسْتَعَانُ ، وَبِكَ الْمُسْتَعَاثُ ، وَعَلَيْكَ التَّكْلَانِ »^(٣٠)
فهذا خبر يتضمّن السؤال .

(احسن طريق للسؤال)

ومن هذا الباب قول ايوب عليه السلام :

﴿ اَتَى مَسْنَى الضُّرِّ وَاَنْتَ اَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ ﴾^(٣١)

فوصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمّن سؤال رحمته بكشف ضره ،
وهى صيغة خبر تضمّنت السؤال . وهذا من باب حسن الأدب فى السؤال
والدعاء ، فقول القائل لمن يُعْظَمُه ويرغب اليه : انا جائع ، انا مريض
حسن ادب فى السؤال . وان كان فى قوله : اَطْعِمْنِي وذَاوِنِي ونحو ذلك مما
هو بصيغة الطلب ، طلبٌ جازمٌ من المسؤول ؛ فذاك فيه إظهار حاله
وإخبار على وجه الدلّ والافتقار المتضمّن لسؤال الحال ، وهذا فيه الرغبة

(٣٠) لم اجد من حرّجه .

(٣١) سورة الانبياء (٨٢/٢١) .

التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب .

وهذه الصيغة «صيغة الطلب والاستدعاء» اذا كانت لمن يحتاج اليه الطالب ، او من يقدرُ على قهر المطلوب منه ونحو ذلك ، فانها تقالُ على وجه الأمر : إما لما في ذلك من حاجة الطالب ، واما لما فيه من نفع المطلوب . فاما اذا كانت من الفقير من كل وجه للفقير من كل وجه فانها سؤال محض بتدلل وافتقار واطهار الحال .

ووصف الحاجة والافتقار هو سؤال بالحال ، وهو ابلغ من جهة العلم والبيان .

وذلك اظهر من جهة القصد والارادة ، فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثاني ، لأن الطالب السائل يتصور مقصوده ومراده فيطلبه ويسأله فهو سؤال بالمطابقة والقصد الأول ، وتصريح به باللفظ ، وان لم يكن فيه وصف لحال السائل والمسئول ، فان تضمن وصف حالهما كان اكمل من النوعين ، فانه يتضمن الخبر والعلم المقتضى للسؤال والاجابة ، ويتضمن القصد والطلب الذى هو نفس السؤال ، فيتضمن السؤال والمقتضى له والاجابة كقول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لما قال : له علمنى دعاء ادعوا به فى صلاتى ، فقال :

« قُلْ : اَللّٰهُمَّ اِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ اِلَّا اَنْتَ ، فَاعْفِرْ لِيْ مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ، وَارْحَمْنِيْ اِنَّكَ اَنْتَ الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ »

اخرجاه فى الصحيحين^(٣٢) .

(٣٢) فاخرجه البخارى فى الاذان (٢٠٣/١) وفى الدعوات (١٥٠/٧) وفى التوحيد (١٦٨/٨) ومسلم فى الذكر (٢٧٠٥ رقم ٢٧٨) .

واخرجه ايضا احمد فى «المسند» (٧/١) والترمذى فى الدعوات (٥٤٣/٥ رقم ٣٥٣١) والنسائى فى السهو (٥٢/٣) وابن ماجه فى الدعاء (١٢٦١/٢ رقم ٣٨٣٥) وابويلى فى «مسنده» (٧/١ نهج ٣٨٠٣ رقم ٣٢) .

فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضى حاجته الى المغفرة ، وفيه وصف ربّه الذي يُوجبُ انه لا يقدرُ على هذا المطلوب غيره ، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه ، وفيه بيان المقتضى للاجابة وهو وصف الربّ بالمغفرة والرحمة فذا ونحوه اكملُ انواع الطلب .

(خصائص ادعية القرآن)

وكثير من الأدعية يتضمن بعض ذلك . كقول موسى عليه السلام :

﴿ أَنْتَ وَلَيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾^(٣٣)

فهذا طلبٌ ووصفٌ للمولى بما يقتضى الاجابة . وقوله :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾^(٣٤)

فيه وصف حال النفس والطلب . وقوله :

﴿ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾^(٣٥)

فيه الوصف المتضمن للسؤال بالحال ، فهذه انواع لكل نوع منها خاصة .

(٣٣) سورة الاعراف(١٥٥/٧)

(٣٤) سورة القصص(١٦/٢٨)

(٣٥) سورة القصص(٣٤/٢٨)

(لماذا كان دعاء ذى النون بصيغة الخبر ؟)

يبقى ان يقال فصاحب الحوت ومن اشبهه لماذا ناسبَ حالهم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب ؟ .

فيقال : لأنَّ المقام اعتراف بان ما اصابني من الشركان بذنبي . فأصل الشَّرُّ هو الذنبُ ، والمقصود دفعُ الضرِّ ، والاستغفار جاء بالقصد الثاني ، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضرِّ لاستشعاره انه مسيء ظالمٌ ، وهو الذى ادخل الضرَّ على نفسه ، فناسب حاله ان يذكر ما يرفع سببه من الاعتراف بظلمه ، ولم يذكر صيغة طلب المغفرة لأنه مقصودٌ للعبد المكروب بالقصد الثاني ؛ بخلاف كشف الكرب فانه مقصود له في حال وجوده بالقصد الأول ، اذا النفس بطبعها تطلبُ ما هى محتاجةٌ اليه من زوال الضرر الحاصل من الحال قبل طلبها زوالَ ما تخاف وجوده من الضرر في المستقبل بالقصد الثاني ، والمقصود الأول في هذا المقام هو المغفرة وطلب كشف الضر ، فهذا مقدم في قصده وارادته ، وأبلغ ما ينال به رفع سببه فجاء بما يحصل مقصوده .

(تفسير « سبحانك »)

وهذا يتبيَّن بالكلام على قوله : ﴿ سبحانك ﴾ فان هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه ، والمقام يقتضى تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب ، يقول : انت مُقَدَّسٌ وَمُنَزَّهٌ عن ظُلْمى وعقوبي بغير ذنب ، بل انا الظالم الذى ظلمت نفسى . قال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(٣٦)

(٣٦) سورة النحل (١٦/١١٨)

وقال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾^(٣٧)

وقال :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾^(٣٨)

وقال آدم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾^(٣٩)

وكذلك قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذى فى مسلم فى دعاء الاستفتاح :

« اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّى وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي ، فَأَغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ »^(٤٠).

(٣٧) سورة هود(١١/١٠١)

(٣٨) سورة الحرف(٤٣/٧٦)

(٣٩) سورة الاعراف(٧/٢٣)

(٤٠) احرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين(١/٥٣٤-٥٣٥ رقم ٧٧١) عن على بن ابي طالب عن رسول الله ﷺ انه كان اذا قام الى الصلاة قال

«وَحُتِّهِ وَحَمِي لِلْدَى فطر السموات والارض حبيفا وما انا من المتركين ان صلاحى وسكى وعماى وماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك امرت وانا من المسلمين ، اللهم انت الملك لا اله الا انت انت ربي وانا عندك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاعمرلى دنوبى جميعا انه لا يعمر الذنوب إلا أنت وأهدنى لاحسن الاحلاق لا يهدى لاحسها الا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها الا انت لتبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والترليس اليك اناك واليك ، تاركت وتعاليت ، استعمرتك واتوب اليك، الحديث

ورواه اسوداود(١/٤٨١ رقم ٧٦٠) والترمذى(٥/٤٨٥ رقم ٣٤٢١) والسنائى(٢/١٣٠) والدارمى(٢٨٢) واحمد(١/١٠٢، ٩٤) وابو يعلى فى (مسنده، ١/٢٤٥ رقم ٢٨٥، ٤٣٣ رقم ٥٧٤)

وفي صحيح البخارى :

« سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ :
اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِى وَأَنَا عَبْدُكَ ،
وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ
شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أُبُوْءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَىَّ ، وَأُبُوْءُ بِذُنْبِى
فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ » .
مَنْ قَالَهَا إِذَا أَصْبَحَ مُوقِنًا بِهَا فَاتَ مِنْ يَوْمِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ،
وَمَنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى مُوقِنًا بِهَا فَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ^(٤١) .

فالعبد عليه ان يعترف بعدل الله واحسانه فانه لا يظلم الناس شيئا
فلا يعاقب احد الا بذنبه ، وهو يحسن اليهم فكل تقمة منه عدل وكل
نعمة منه فضل .

(معنى «لا اله الا أنت»)

فقوله : ﴿ لا اله الا أنت ﴾ فيه اثبات انفراده بالالهية ، والالهية
تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته ، ففيها اثبت احسانه الى العبد
فان «الاله» هو المألوه ، والمألوه هو الذى يستحق ان يعبد ، وكونه
يستحق ان يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم ان يكون هو
المحبوب غاية الحب ، الخضوع له غاية الخضوع ؛ والعبادة تتضمن غاية
الحب بغاية الذل .

(٤١) فى الدعوات (١٤٥/٧، ١٥٠)

وراجع «الصحيحة» (١٧٤٧) والحديث فى «شعب الايمان» للبيهقى (رقم ٦٥٨) فراجع تخريجه
هناك .

وقوله : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ يتضمن تعظيمه وتنزيهه عن الظلم وغيره من النقائص ، فان التسييح وان كان يقال : يتضمن نفى النقائص ، وقد روى في حديث مرسل^(٤٢) من مراسيل موسى بن طلحة عن النبي ﷺ في قول العبد : سبحان الله .

« انها براءة الله من السوء » .

فالنفي لا يكون مدحا الا اذا تضمن ثبوتا والا فالنفي المحض لامدح فيه ، ونفى السوء والنقص عنه يستلزم اثبات محاسنه وكاله ، والله الاسماء الحسنی .

وهكذا عامة ما يأتي به القرآن في نفى السوء والنقص عنه يتضمن اثبات محاسنه وكاله . كقوله تعالى :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾^(٤٣)

فنفي اخذ السنّة والنوم له يتضمن كمال حياته وقِيُومِيَّتِهِ وقوله :
﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾^(٤٤)

يتضمن كمال قدرته ، ونحو ذلك . فالتسييح المتضمن تنزيهه عن السوء ، ونفى النقص عنه يتضمن تعظيمه . ففي قوله : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ تبرئته من الظلم ، واثبات العظمة الموجبة له براءته من الظلم ، فان الظالم انما يظلم لحاجته الى الظلم او لجهله ، والله غني عن كل شيء ، علم بكل شيء ، وهو غني بنفسه ، كل ماسواه فقير اليه ، وهذا كمال العظمة .

(٤٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/١٥)

(٤٣) سورة البقرة (٢/٢٥٥)

(٤٤) سورة ق (٣٨/٥٠)

(افضل الكلام عند الله)

وايضا ففى هذا الدعاء التهليل والتسبيح فقلوه : ﴿ لا اله الا انت ﴾ تهليل . وقوله : ﴿ سبحانك ﴾ تسبيح . وقد ثبت فى الصحيح^(٤٥) عن النبي ﷺ انه قال :

« افضل الكلام بعد القرآن اربع : وهن من القرآن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله اكبر » .

والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له ، والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له .

وفى الصحيح^(٤٦) عن النبي ﷺ انه سئل اى الكلام افضل ؟ قال :

« مَا صُطِّفَى اللَّهُ لَمَلَأَتْكَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ » .

وفى الصحيحين^(٤٧) عن النبي ﷺ انه قال :

« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

(٤٥) اخرجه مسلم فى الآداب من «صحيحه» (١٦٨٥/٢) من حديث سمرة بن جندب ، ولفظه :

«احب الكلام الى الله اربع....» ورواه البيهقى فى «شعب الايمان» (رقم ٥٨٥٠-بتحقيقنا) وراجع تخريجه هناك .

(٤٦) راجع مسلم (٢٠٩٣/٣) رقم (٢٧٣١) وراجع «شعب الايمان» (رقم ٥٨٦٦)

(٤٧) اخرجه البخارى فى الدعوات (١٦٨/٧) وفى الايمان والنذور (٢٢٩/٧) وفى التوحيد (٢١٩/٨) ومسلم فى الذكر (٢٠٧٢/٣) رقم (٢٦٩٤) ورواه البيهقى فى «شعب الايمان» (رقم ٥٨٥٠) وراجع تخريجه فيه .

وفي القرآن :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾^(٤٨)

وقالت الملائكة :

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾^(٤٩)

وهاتان الكلمتان احدهما مقرونة بالتحميد ، والأخرى بالتعظيم ، فانا قد ذكرنا ان التسبيح فيه نفى السوء والنقائص المتضمن اثبات المحاسن والكمال ، والحمد انما يكون على المحاسن ، وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والاكرام ، إذ ليس كل مُعَظَّم محبوباً محموداً ، ولا كل محبوب محموداً معظماً ، وقد تقدم ان العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد ، وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم ، ففي العبادة حبه وحمده على المحاسن ، وفيها الذل له الناشئ عن عظمته وكبريائه . ففيها اجلاله واکرامه . وهو سبحانه المستحق للجلال والاكرام ، فهو مستحق غاية الاجلال وغاية الاكرام .

ومن الناس من يحسب ان «الجلال» هو الصفات السلبية و«الاکرام» الصفات الثبوتية ، كما ذكر ذلك الرازي ونحوه والتحقيق ان كليهما صفات ثبوتية ، واثبات الكمال يستلزم نفى النقائص ، لكن ذكر نوعى الثبوت وهو ما يستحق ان يُحَبَّ وما يستحق ان يُعَظَّمَ : كقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾^(٥٠)

وقول سليمان عليه السلام :

(٤٨) سورة النصر (٣/١١٠)

(٤٩) سورة البقرة (٣٠/٢)

(٥٠) سورة لقمان (٢٦/٣١)

﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾^(٥١)

وكذلك قوله :

﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾^(٥٢)

فان كثيرا ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محمودا بل مذموما ، إذ الحمد يتضمن الاخبار عن الحمود بحاسنة المحبوبة ، فيتضمن اخبارا بحاسن المحبوب محبة له .

وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجز وضعف ودل ينفي العظمة والغنى والملك . فالاول يُهاب ويُخاف ولا يُحَب . وهذا يُحَب ويُحمد ، ولا يُهاب ولا يُخاف . والكمال اجتماع الوصفين . كما ورد في الأثر :

« ان المؤمن رزق حلاوة ومهابة »^(٥٣)

وفي نعت النبي ﷺ :

« كان من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة
احبه »^(٥٤)

فقرن التسييح بالتحميد ، وقرن التهليل بالتكبير ، كما في كلمات الاذان . ثم ان كل واحد من النوعين يتضمن الآخر اذا أفرد : فان

(٥١) سورة النمل (٤٠/٢٧)

(٥٢) سورة التغابن (١/٦٤)

(٥٣) لم أجده من خرجه .

(٥٤) جاء في حديث على رضي الله عنه في نعت النبي ﷺ . أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢٧٠/١) وأخرجه الترمذي (٥٩١/٥ رقم ٢٦٣٨) وقال : هذا حديث حسن غريب ليس اسناده بمتصل .

التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم ؛ ويتضمن اثبات ما يحمده عليه ، وذلك يستلزم الالهية . فان الالهية تتضمن كونه محبوبا ؛ بل تتضمن انه لا يستحق كمال الحب الا هو . والحمد هو الاخبار عن الحمود بالصفات التي يستحق ان يحب فالالهية تتضمن كمال الحمد ، ولهذا كان «الحمد لله» مفتاح الخطاب . وكل امر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو اجذم^(٥٥)

و «سبحان الله» فيها اثبات عظمتة كما قدمناه ، ولهذا قال :

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾^(٥٦)

وقد قال النبي ﷺ :

« اجعلوها في ركوعكم »

رواه اهل السنن^(٥٧) .

وقال :

« اما الركوع فعظموا فيه الرب واما السجود

فاجتهدوا فيه بالدعاء فقمنا ان يستجاب لكم »

رواه مسلم^(٥٨) .

(٥٥) حديث «كل امر ذى بال لا يبدأ بالحمد لله فهو اجذم»

رواه ابوداود في «سننه» (١٧٢/٥ رقم ٤٨٤٠) وابن ماجه وابن حبان .

وهو عند البيهقي في «شعب الايمان» (الشعبة ٣٣) فراجعه .

(٥٦) سورة الواقعة (٩٦، ٧٤/٥٦)

(٥٧) رواه ابوداود في «سننه» (٥٤٢/١ رقم ٨٦٩) وابن ماجه (٢٨٧/١ رقم ٨٨٧) واحمد في

«المسند» (١٥٥/٤) والحاكم (٤٧٧/٢) والبيهقي في «سننه» (٨٦/٢) .

(٥٨) في الصلاة (٢٤٨/١ رقم ٤٧٩) من حديث ابن عباس

فجعل التعظيم في الركوع اخص منه بالسجود ؛ والتسبيح يتضمن التعظيم .

ففى قوله «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» اثباتُ تنزيهه وتعظيمه والهيته وحده . واما قوله : « لا اله الا الله والله اكبر » ففى لاله الا الله اثباتُ محامده فانها كلها داخلة فى اثبات الهيته وفى قوله : « الله اكبر » اثبات عظمته فان الكبرياء تتضمنُ العظمةَ ولكن الكبرياء اكل .

ولهذا جاءت الالفاظ المشروعة فى الصلاة والأذان بقول : « الله اكبر » فان ذلك اكل من قول الله اعظم ، كاثبت فى الصحيح^(٥٩) عن النبى ﷺ انه قال :

« يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منها عذبتة »

فجعل العظمة كالازار ، والكبرياء كالرداء ، ومعلوم ان الرداء اشرف ، فلما كان التكبير ابلغ من التعظيم صرح بلفظه ، وتضمن ذلك التعظيم ، وفى قوله : سبحان الله ، صرح فيها بالتنزيه من سوء المتضمن للتعظيم ، فصار كل من الكلمتين متضمنا معنى الكلمتين الآخرين إذا أفردتا ، وعند الاقتران تُعطى كل كلمة خاصيتها .

= واخرجه ايضا ابوداود (٨٧٦/١ رقم ٥٤٥) والنسائي (١٨٩/٢-١٩٠-٢١٧: ٢١٨) واحد فى «المسند» (٢١٩/١) والدارمى (٣٠٤) والحيدى فى «مسنده» (٢٢٨/١ رقم ٤٨٩) وعبدالرزاق فى «مصنفه» (١٤٥/٢ رقم ٢٨٣٩) وابن ابى شيبة فى «مصنفه» (٢٤٩/١) والبيهقى فى «سننه» (٨٨-٨٧/٢)

واخرجه ابن خزيمة فى «صحيحه» (٢٧٦/١ رقم ٥٤٨) وابويلى فى «مسنده» (٢٧٥/٤ رقم ٢٣٨٧) .

(٥٩) رواه مسلم فى «صحيحه» فى البر (٢٠٢٣/٣ رقم ٢٦٢٠)

اخرجه ابوداود فى اللباس (٣٥٠/٤ رقم ٤٠٩٠) وابن ماجه فى «الزهد» (١٣٩٧/٢ رقم ٤١٧٤) واحد فى «المسند» (٤٤٢، ٤٢٧، ٤١٤، ٣٧٦/٢) .

وهذا كما ان كل اسم من اسماء الله فانه يستلزم معنى الآخر ؛ فانه يدل على الذات ، والذات تستلزم معنى الاسم الآخر ، لكن هذا بالضرورة . واما دلالة كل اسم على خاصيته وعلى الذات بمجموعها فبالمطابقة ، ودلالتهما على احدهما بالتضمن .

فقول الداعي : ﴿ لا اله الا انت سبحانك ﴾ يتضمن معنى الكلمات الاربع اللاتي هن افضل الكلام بعد القران . وهذه الكلمات تتضمن معاني اسماء الله الحسنى وصفاته العليا ففيها كمال المدح .

وقوله : ﴿ انى كنت من الظالمين ﴾ فيه اعتراف بحقيقة حاله ، وليس لأحد من العباد ان يبرّئ نفسه عن هذا الوصف ، لاسيا في مقام مناجاته لربه . وقد ثبت في الصحاح^(٦٠) عن النبي ﷺ انه قال :

« لا ينبغي لعبد ان يقول انا خير من يونس بن متى »

وقال :

« من قال : انا خير من يونس ابن متى فقد كذب »^(٦١)

فن ظن انه خير من يونس بحيث يعلم انه ليس عليه ان يعترف بظلم نفسه فهو كاذب ، ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون انفسهم على يونس في هذا المقام ، بل يقولون : كما قال ابوهم آدم وخاتمهم محمد ﷺ .

☆☆☆☆☆

(٦٠) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١٣٢/٤-١٣٣) ومسلم فى الفضائل (١٨٤٦/٢) عن ابن عباس وأبي هريرة وأخرجه أيضاً ابوداود فى «السنة» (٥١/٥ رقم ٤٦٦٩) عن ابن عباس وأخرجه البخارى (١٣٢/٤) والنسائى فى «الكبرى» (تحفة الاشراف ٤٥/٧) من حديث ابن مسعود .

(٦١) أخرجه احمد (٤٥١/٢) والحاكم فى «المستدرک» (٤٨٥/٢) من حديث ابى هريرة ، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

فصل (لم كانت كاشفة للكرب ؟)

واما قول السائل : لم كانت موجبة لكشف الضر ؟ فذلك لأن الضر لا يكشفه الا الله . كما قال تعالى :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾^(١)

والذنوب سبب للضر ، والاستغفار يزيل اسبابه كما قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾^(٢)

فاخبر انه سبحانه لا يعذب مستغفرا . وفي الحديث :

« مَنْ أَكْثَرَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ قَرَجًا ، مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »^(٣)

(١) سورة يونس (١٠٧/١٠)

(٢) سورة الانفال (٣٣/٨)

(٣) حديث ضعيف اخرجه احمد والحاكم ، وانظر تحريجه في «شعب الايمان» للبيهقي (رقم ٦٣٦)

وقال تعالى :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾^(٤)

فقوله : ﴿انى كنت من الظالمين﴾ اعتراف بالذنب وهو استغفار ،
فان هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة .

وقوله : ﴿لااله الا انت﴾ تحقيق لتوحيد الالهية . فان الخير
لاموجب له الا مشيئة الله ، فاشاء كان 'ومالم يشأ لم يكن ، والمعوق له
من العبد هو ذنوبه ، وماكان خارجا عن قدرة العبد فهو من الله ،
وان كانت افعال العباد بقدر الله تعالى ، لكن الله جعل فعل المأمور وترك
المحذور سببا للنجاة ، والسعادة ، فشهادة التوحيد تفتح باب الخير ،
والاستغفار من الذنوب يُغلق باب الشر .

(الرجاء من الله وحده)

ولهذا ينبغى للعبد ان لا يُعَلّق رجاءه الا بالله ، ولا يخاف من الله ان
يظلمه : فان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون ، بل
يخاف ان يجزيه بذنوبه ، وهذا معنى ماروى عن على رضى الله عنه انه
قال : لا يَرْجُونَ عبد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه .

وفى الحديث المرفوع الى النبي ﷺ انه دَخَلَ على مريض فقال :

« كيف تجدك ؟ » فقال : ارجو الله واخاف ذنوبى ، فقال :

« ما اجتماعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن الا

(٤) سورة الشورى (٣٠/٤٢)

أعطاء الله ما يرجو وآمنه مما يخاف^(٥)

فالرجاء ينبغى ان يتعلق بالله ، ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله ، فان تعليق الرجاء بغير الله اشراك ، وان كان الله قد جعل لها اسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه ، بل لابد له من معاون ، ولا بد ان يمنع المعارض الموق له وهو لا يحصل ويبقى الا بمشيئة الله تعالى .

ولهذا قيل : الالتفات الى الاسباب شرك في التوحيد ، ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص في العقل ، والإعراض عن الاسباب بالكلية قدح في الشرع . ولهذا قال الله تعالى :

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾^(٦)

فامر بأن تكون الرغبة اليه وحده ، وقال :

﴿ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾^(٧)

فالقلب لا يتوكل الا على من يرجوه ، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر الى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب ، ومارجا احدا مخلوقا أو توكل عليه الا خاب ظنه فيه فانه مشرك :

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾^(٨)

(٥) أخرجه الترمذى وابن ماجة وأبو يعلى والبيهقى في «شعب الإيمان» (الشعبة ١٢) وراجع تخريجه فيه .

(٦) سورة الم نشرح (٨٠٧/٩٤)

(٧) سورة المائدة (٢٣/٥)

(٨) سورة الحج (٣١/٢٢)

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ، ويرجوه ، فيحصل له رعبٌ كما قال تعالى :

﴿ سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا
بِاللَّهِ مَا لَهُمْ يَنْزِلُ بِهِ سُلْطَانًا ۖ ﴾^(٩)

والخالص من الشرك يحصل له الأمن كما قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ
لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۖ ﴾^(١٠)

وقد فسر النبي ﷺ الظلم هنا بالشرك . ففي الصحيح^(١١) عن ابن مسعود ان هذه الآية لما نزلت شق ذلك على اصحاب النبي ﷺ وقالوا :
أئنا لم نظلم أنفسه ؟ فقال النبي ﷺ :

« انما هذا الشرك ، الم تسمعوا الى قول العبد الصالح :
﴿ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۖ ﴾^(١٢) ؟ »

وقال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ
كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ
ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ

(٩) سورة آل عمران (١٥١/٣)

(١٠) سورة الانعام (٨٢/٦)

(١١) أخرجه البخارى فى الانبياء (١١٢/٤ ، ١٣٧) ومسلم فى الايمان (١١٤/١) رقم (١٢٤٤) واحمد فى مسنده « (١/٣٧٨ ، ٤٢٤ ، ٤٤٤) .

(١٢) سورة لقمان (١٣/٣١)

اتَّبِعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرَّرَ فَتَنْتَبِرًا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا
مِنَّا كَذَلِكَ يَريهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ
بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٣﴾

وقال تعالى :

﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِّنْ ذَوْنِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ
كُشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَخْوِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ
مَحْذُورًا ﴾ ﴿١٤﴾

ولهذا يذكر الله الأسباب . ويأمر بأن لا يعتمد عليها ، ولا يرجى
الاله ، قال تعالى لما أنزل الملائكة :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ
وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ﴿١٥﴾

وقال :

﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ
ذَٰلِكُمْ يَنْصُرْكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٦﴾

(١٣) سورة البقرة (١٦٥/٢-١٦٧)

(١٤) سورة الاسراء (١٧/٥٦-٥٧) .

(١٥) سورة آل عمران (٣/١٢٦)

(١٦) ايضا (٣/١٦٠)

(الدعاء لا يصلح الا لله)

وقد قدمنا ان الدعاء نوعان :

دعاء عبادة . ودعاء مسألة .

وكلاهما لا يصلح الا لله ، فمن جعلَ مع الله الهًا آخر قعد مذمومًا مخذولاً . والراجى سائلٌ طالبٌ فلا يصلحُ أن يرجو الا الله ، ولا يسأل غيره ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح :

« ما أتاك من هذا المال وانتَ غيرُ سائلٍ ولا مُشْرِفٍ فخذهُ ، وما لا فلا تتبعهُ نفسك »^(١٧)

فالمُشْرِفُ الذى يستشرفُ بقلبه ، والسائل الذى يسأل بلسانه ، وفى الحديث الذى فى الصحيحين^(١٨) عن أبى سعيد الخدرى قال : أصابتنا فاقة فجئت رسول الله ﷺ لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول :

« ايها الناس والله ! مهما يكن عندنا من خير فلن ندخره عنكم ، وانه من يستغن يُغنيه الله ، ومن يستعفف يُعِفِّه الله ، ومن يتصبر يُصَبِّرْهُ الله ، وما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر »

(١٧) أخرجه البخارى فى الزكاة (١٣٠/٢) وفى الاحكام (١١١/٨) ومسلم فى الزكاة (٧٢٣/١) رقم (١٠٤٥) والبيهقى فى «شعب الايمان» (الشعبة ٢٢) وراجع بقية تخريجه هناك .

(١٨) أخرجه البخارى فى الزكاة (١٢٩/٢) وفى الرقاق (١٨٣/٧) ومسلم فى الزكاة (٧٢٩/١) رقم (١٠٥٣)

وأخرجه ايضا ابوداود فى الزكاة (٢٩٥/٢) رقم (١٦٤٤) والترمذى فى البر (٣٧٣/٤) رقم (٢٠٢٤) والنسائى فى الزكاة (٩٦-٩٥/٥) والدارمى فى الزكاة (٣٨٧) واحمد فى «المسند» (٩٣، ٤٧، ١٢، ٣/٣) وعند مالك فى «الموطأ» (٩٩٧) وأخرجه ابويعلى فى «مسنده» (٣٦٧/٢) رقم (١١٢٩)، ٤٥٥ رقم (١٢٦٧)، ٥٠٥ رقم (١٣٥٢)

و «الاستغناء» أن لا يرجو بقلبه أحداً فيستشرف إليه و
«الاستعفاف» أن لا يسأل بلسانه أحداً . ولهذا لما سئل احمد بن حنبل
عن التوكل فقال : قطع الاستشراف الى الخلق — اى لا يكون فى قلبك ان
احداً يأتيك بشيء — فقيل له : فما الحجة فى ذلك ؟ فقال : قول الخليل
لما قال له جبرئيل هل لك من حاجة ؟ فقال :

« أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا »^(١٩)

فهذا وما يشبهه مما يُبين ان العبد فى طلب ما ينفعه ودفع ما يضره
لا يُوجّه قلبه الا الى الله ، فلهذا قال المكروب : ﴿ لا اله الا انت ﴾ .
ومثل هذا ما فى الصحيحين^(٢٠) عن ابن عباس ان النبى ﷺ كان يقول :
عند الكرب :

« لا اله الا الله العظيم الحليم ، لا اله الا الله رب العرش
العظيم ، لا اله ربّ السموات ورب الأرض ربّ العرش
الكريم » .

فان هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد ، وتأله العبد ربه ، وتعلق رجائه
به وحده لا شريك له ، وهى لفظ خبر يتضمن الطلب .

(١٩) هذا جزء من قصة ذكرها البغوى فى «تفسيره» (٣٠١/٤) جاء فيها ان ابراهيم عليه السلام
لما رموا به فى النار جاءه جبريل فقال : يا ابراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما اليك فلا ،
قال جبريل : فسل ربك ، قال : حسبي من سؤالى علمه بحالى .

وذكر هذه الجملة الاخيرة ابن عراق فى «تنزيه الشريعة المرفوعة» (٢٥٠/١) وقال : قال
ابن تيمية : موضوع . واورده الالبانى فى «الضعيفة» (٢١) وقال : لا اصل له .

(٢٠) اخرجه البخارى فى الدعوات (١٥٤/٧) وفى التوحيد (١٧٨، ١٧٧/٨) ومسلم فى
الذكر (٢٠٩٣/٣) رقم (٢٧٣٠) واحمد فى «المسند» (٢٥٤، ٢٢٨/١) (٢٨٤، ٢٨٠، ٢٣٩، ٣٥٦)

واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان» عن عبدالله بن جعفر عن على بنحوه (رقم ٦١٤)

والناس وإن كانوا يقولون بالأسنتهم : لا اله الا الله ، فقول العبد لها مخلصا من قلبه له حقيقة اخرى ، وبحسب تحقيق التوحيد تكل طاعة الله . قال تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ
هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾^(٢١)

فمن جعل ما ياله هو ما يهواه فقد اتخذ الهه هواه ، اى جعل معبوده هو ما يهواه ، وهذا حال المشركين الذين يعبد احدهم ما يستحسنه فهم يتخذون اندادا من دون الله يحبونهم كحب الله ، ولهذا قال الخليل :

﴿ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾^(٢٢)

فان قومه لم يكونوا منكرين للصانع ، ولكن كان احدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعا له كالشمس والقمر والكواكب ، والخليل يبين ان الآفل يغيب عن عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده ، ولا يسمع كلامه ، ولا يعلم حاله ، ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره ، فأى وجه لعبادة من يأفل ؟ ! .

(الاخلاص فى الدين)

وكلما حقق العبد الاخلاص فى قول : لا اله الا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه ، وتصرف عنه المعاصى والذنوب ، كما قال تعالى :

(٢١) سورة الفرقان (٢٥/٤٣، ٤٤)

(٢٢) سورة الانعام (٦/٧٦)

﴿ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾^(٢٣)

فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين ، وهؤلاء هو الذين قال فيهم :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾^(٢٤)

وقال الشيطان :

﴿ قَبِعْزَتِكَ لِأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾^(٢٥)

وقد ثبت في الصحيح^(٢٦) عن النبي ﷺ انه قال :

« من قال لا اله الا الله مخلصا من قلبه حرمه الله على النار » .

فان الاخلاص ينفي اسباب دخول النار ، فمن دخل النار من القائلين لا اله الا الله لم يحقق اخلاصها المحرم له على النار ، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي اوقعه فيما ادخله النار ، والشرك في هذه الأمة اخفى من ديب النمل ، ولهذا كان العبد مأمورا في كل صلاة ان يقول :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

(٢٣) سورة يوسف (٢٤/١٢)

(٢٤) سورة الحجر (٤٢/١٥)

(٢٥) سورة ص (٨٢/٣٨-٨٣)

(٢٦) أخرجه البخارى (٤١/١) ومسلم (٦١/١) وراجع تخريجه في «شعب الايمان» في التعليق على الحديث (٧)

والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك ، فلا تزال النفس تلتفت الى غير الله ، اما خوفاً منه ، واما رجاء له ؛ فلا يزال العبد مفتقراً الى تخلص توحيده من شوائب الشرك ، وفي الحديث الذى رواه ابن ابي عاصم^(٢٧) وغيره عن النبي ﷺ انه قال :

« يقول الشيطان : اهلكت الناس بالذنوب واهلكوني بلاله الا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثتُ فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون ، لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » .

فصاحب الهوى الذى اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ الهه هواه ، فصار فيه شركٌ منعه من الاستغفار ، واما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد ان يرفع عنه الشر ، فلماذا قال ذوالنون :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

(الصلة بين التوحيد والاستغفار)

ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع . كقبوله تعالى :

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾^(٢٨)

(٢٧) في «كتاب السنة» له (٩/١١ رقم ٧) وقال الالبانى : اسنده موضوع وأفته عبدالغفور .

واخرجه ابويعلى في «مسنده» (١٢٣/١ رقم ١٣٦) وقال الهيئى : فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف (جمع الزوائد ١٠/٢٠٧)

(٢٨) سورة محمد (١٩/٤٧)

وقال :

﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنِ
اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾^(٢٩)

وقوله :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ الى قوله ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ
تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾^(٣٠)

وقوله :

﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾^(٣١)

وخاتمة المجلس :

« سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ
اسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ »^(٣٢)

ان كان مجلس رحمة كانت كالطابع عليه ، وان كان مجلس لغو كانت
كفارة له .

(٢٩) سورة هود(١١/٢-)

(٣٠) ايضاً(١١/٥٠-٥٢)

(٣١) سورة حم السجدة(٤١/٦)

(٣٢) اخرجہ النسائی فی «اليوم واللييلة»(٤٢٩-٤٣٠) عن ابى العالية عن النبی ﷺ مرسلًا .

وروى مرفوعاً من حديث رافع اخرجہ النسائی(٤٢٧) والحاكم في «المستدرک»(٢/٥٣٧)
ومن حديث ابى برزة الاسلمى اخرجہ النسائی(٤٢٦) وابوداود(٥/١٨٢ رقم ٤٨٥٩)
والدارمی والحاكم في «المستدرک»(١/٥٣٧) ومن حديث نافع بن جبير عن ابيه اخرجہ
النسائی(رقم ٤٢٤) والحاكم(١/٥٣٧) والطبرانی في «المعجم الكبير»(رقم ١٥٨٦) .

وقد روى ايضا انها تقال في آخر الوضوء بعد ان يقال :

« اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان
محمدًا عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التَّوَّابِينَ
واجعلني مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ »^(٣٣)

وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار ، فان صدره الشهادتان
اللتان هما اصلا الدين وجماعه : فان جميع الدين داخل في «الشهادتين» إذ
مضمونها ان لانعبد الا الله ، وان نطيع رسوله ، و«الدين» كله داخل في
هذا في عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله ، كل ما يجب او يستحب داخل
في طاعة الله ورسوله .

وقد روى انه كان يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت ،
استغفرُكَ واتوبُ اليكَ » .

وهذا كفارة المجلس ، فقد شرع في آخر المجلس وفي آخر الوضوء .
وكذلك كان النبي ﷺ يختم الصلاة كما في الحديث الصحيح^(٣٤) انه كان
يقول في آخر صلاته :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَمْرَزْتُ »

(٣٣) اخرج هذا الدعاء بكامله الترمذى في «جامعه» (٧٨٧٧/١ رقم ٥٥) واخرجه دون الجملة
الاخيرة مسلم (٢٠٩/١ رقم ٢٣٤) وابوداود (١١٨/١-١١٩ رقم ١٦٩) والنسائي (٩٢/١) واحمد (١٩/١)،
١٥٣/٤) وابويلى في «مسنده» (١٦٢/١ رقم ١٨٠، ٢١٣ رقم ٢٤٩) .

واخرج النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨١) عن ابى سعيد عن النبي ﷺ قال :
«من توطأ فقال سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت استغفرُكَ واتوبُ اليكَ
كُتِبَ في رَق ثم طبع بطابع فلم يكسر الى يوم القيامة » .

(٣٤) راجع مسلم في صلاة المسافرين (٥٣٤/١-٥٣٦ رقم ٧٧١) وهو نفس الحديث الذى مرّ تخريجه
في التعليق رقم (٤٠) .

وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمَقْدَمُ وَأَنْتَ
الْمُؤَخَّرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ »

وهنا قدّم الدعاء وختمه بالتوحيد ، لأن الدعاء مأمور به في آخر الصلاة ، وختم بالتوحيد ليختم الصلاة بأفضل الأمرين وهو التوحيد ، بخلاف ما لم يقصد فيه هذا فان تقديم التوحيد افضل .

فان جنس الدعاء الذى هو ثناء وعبادة افضل من جنس الدعاء الذى هو سؤال وطلب ، وان كان المفضل قديفضل على الفاضل في موضعه الخاص بسبب وبأشياء أخرى ، كما ان الصلاة افضل من القراءة ، والقراءة افضل من الذكر الذى هو ثناء ، والذكر افضل من الدعاء الذى هو سؤال . ومع هذا فالمفضل له امكنة وازمنة واحوال يكون فيها افضل من الفاضل ، لكن اول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد ، واخلاص الدين كله لله هو تحقيق قول لا اله الا الله .

(توحيد الالهية وتوحيد الربوبية)

فان المسلمين وان اشتركوا في الاقرار بها ، فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلا لا تقدر ان تضبطه ، حتى ان كثيرا منهم يظنون ان التوحيد المفروض هو الاقرار والتصديق بان الله خالق كل شيء وربه . ولا يميزون بين الاقرار بتوحيد الربوبية الذى اقر به مشركو العرب . وبين توحيد الالهية الذى دعاهم اليه رسول الله ﷺ ، ولا يجمعون بين التوحيد القولى والعملى .

فان المشركين ما كانوا يقولون : إن العالم خلقه اثنان ، ولا ان مع الله رباً ينفرد دونه بخلق شئى ؛ بل كانوا كما قال الله عنهم :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ :

الله ﴿٣٥﴾

وقال تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (٣٦)

وقال تعالى :

﴿ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ : أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ قُلْ : مَنْ رَبُّ
السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ سَيَقُولُونَ :
لِلَّهِ . قُلْ : أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ قُلْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟
سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ . قُلْ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ؟ ﴾ (٣٧)

وكانواع إقرارهم بان الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة أخرى ،
يجعلونهم شفعاء لهم إليه . ويقولون : مانعدهم إلا لِيَقْرَبُونَا إلى الله
زَلَفَى . وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ .

والاشراك فى الحب والعبادة والدعاء والسؤال غيرالاشراك فى الاعتقاد
والاقرار ، كما قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ
كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (٣٨)

فمن أحب مخلوقًا كما يحب الخالق فهو مشرك به ، قد اتخذ من دون الله
أندادًا يحبهم كحب الله ، وإن كان مقرًا بان الله خالقه .

(٣٥) سورة لقمان (٢٥/٣١)

(٣٦) سورة يوسف (١٠٦/١٢)

(٣٧) سورة المؤمنون (٨٩-٨٤/٢٣)

(٣٨) سورة البقرة (١٦٥/٢)

(الفرق بين الحب لله والحب مع الله)

ولهذا فرق الله ورسوله بين من أحب مخلوقاً لله ، وبين من أحب مخلوقاً مع الله ، فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذى هو منتهى حبه وعبادته لا يحب معه غيره ؛ لكنه لما علم أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين أحبهم لأجله ، وكذلك لما علم أن الله يحب فعل الأمور وترك المحظور أحب ذلك ، فكان حبه لما يحبه تابعاً لمحبة الله وفرعاً عليه وداخلاً فيه .

بخلاف من أحب مع الله فجعله ندّاً لله يرجوه ويخافه ، أو يطيعه من غير أن يعلم أن طاعته طاعة لله ، ويتخذة شفيعاً له من غير أن يعلم أن الله يأذن له أن يشفع فيه قال تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٣٩)

وقال تعالى :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَأْمُورُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٠)

وقد قال عدى بن حاتم للنبي ﷺ ما عبدوهم ، قال :

« احلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال

(٣٩) سورة يونس (١٨/١٠)

(٤٠) سورة التوبة (٣١/٩)

فأطاعوهم ، فكانت تلك عبادتهم ايامهم «^(٤١).

قال تعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ
بِهِ اللَّهُ ﴾^(٤٢)

وقال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَقَعْ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَأْتِينِي
اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾^(٤٣)

(طاعة الرسول هي طاعة الله)

فالرسول وجبت طاعته ، لأنه من يطع الرسول فقد اطاع الله ،
فالحلال ماحلله ، والحرام ماحرّمه ، والدين ماشرعه ، ومن سوى الرسول
من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك انما تجب طاعتهم اذا كانت طاعتهم
طاعة لله ، وهم اذا امرالله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخله في طاعة
الرسول ، قال تعالى :

(٤١) أخرجه الترمذى (٣٧٨/٥ رقم ٣٠٩٥) وقال حديث غريب . والبيهقى في «سننه» (١١٦/١٠)
وانظر «الدر المنثور» (١٧٤/٤) .

(٤٢) سورة الشورى (٢١/٤٢)

(٤٣) سورة الفرقان (٢٨-٢٧/٢٥)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾^(٤٤)

فلم يقل واطيعوا الرسول واطيعوا اولى الأمر منكم ، بل جعل طاعة
اولى الأمر داخله في طاعة الرسول ، وطاعة الرسول طاعة لله ، واعاد
الفعل في طاعة الرسول دون طاعة اولى الامر ، فانه من يطع الرسول
فقد اطاع الله ، فليس لاحد اذا امر الرسول بأمر ان ينظر هل امر الله به
ام لا ، بخلاف اولى الامر فانهم قدياًمرون بمعصية الله ، فليس كل من
اطاعهم مطيعاً لله . بل لابدّ فيما يأمرهم به ان يعلم انه ليس بمعصية لله ،
وينظر هل امر الله به ام لا ، سواء كان اولى الامر من العلماء او الامراء ،
يدخل في هذا تقليد العلماء وطاعة امراء السرايا وغير ذلك ، وبهذا
يكون الدين كله لله قال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ
لِلَّهِ ﴾^(٤٥)

وقال النبي ﷺ :

« لما قيل له : يا رسول الله ! الرجل يقاتل شجاعة ،
ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . فأى ذلك في
سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي
العليا فهو في سبيل الله »^(٤٦)

(٤٤) سورة النساء (٥٩/٤)

(٤٥) سورة الانفال (٣٩/٨)

(٤٦) اخرجہ البخاری فی العلم (٤٠/١) وفي التوحيد (١٨٩/٨) ومسلم في
الامارة (١٥١٢/٢-١٥١٣/٢) والترمذی فی فضائل الجهاد (١٧٩/٤) رقم (١٦٤٦) وابن ماجه
فی الجهاد (٩٣١/٢) رقم (٢٧٨٣) واحمد فی «المسند» (٤١٧، ٤٠٥، ٣٩٧/٤) والبيهقي في
«سننه» (١٦٨، ١٦٧/٩) .

ثم ان كثيرًا من الناس يحب خليفة او عالما او شيخا او اميرا فيجعله ندًا لله ، وان كان قديقول : انه يحبه الله .

فن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه وان خالف امر الله ورسوله فقد جعله ندًا ، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح ، ويدعوه ويستغيث به ، ويوالى اوليائه ، ويعادى اعداءه مع ايجابه طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه ، ويقيه مقام الله ورسوله فهذا من الشرك الذى يدخل أصحابه في قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (٤٧)

فالتوحيد والاشراك يكون في اقوال القلب ، ويكون في اعمال القلب ولهذا قال الجنيد : التوحيد قول القلب ، والتوكل عمل القلب .

اراد بذلك التوحيد الذى هو التصديق ، فانه لما قرنه بالتوكل جعله اصله ، واذا افرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله ، والتوكل من تمام التوحيد .

(معنى الايمان)

وهذا كلفظ «الايمان» فانه اذا افرد دخلت فيه الاعمال الباطنة والظاهرة .

وقيل الايمان قول وعمل ، اى قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح .

ومنه قول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه :

« الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسُتُونٌ شُعْبَةٌ ، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَادْنَاهَا امْطَاةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ »^(٤٨)

ومنه قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾^(٤٩)

وقوله :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾^(٥٠)

وقوله :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾^(٥١)

(٤٨) هكذا في الاصل «بضع وستون» بدون شك . والرواية بهذه اللفظة مختصرة اخرجها مسلم في الايمان . ورواية المتن جاءت بالشك «بضع وستون أو بضع وسبعون» اخرجها مسلم ايضاً وجاءت «بضع وسبعون» بدون شك عند مسلم وغيره . وراجع الكلام عليها في «شعب الايمان» (١-بتحقيقنا) .

(٤٩) سورة الحجرات (١٥/٤٩)

(٥٠) سورة الانفال (٤-٢/٨)

(٥١) سورة النور (٦٢/٢٤)

و «الايان المطلق» يدخل فيه الاسلام كما فى الصحيحين^(٥٢) عن النبى ﷺ انه قال لو قد عبد القيس :

«أمركم بالايان بالله ؛ أتدرون ما الايان بالله ؟ شهادة
ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله واقام الصلاة ،
وإيتاء الزكاة ، وان تؤدوا خمس ما غنمتم »

ولهذا قال من قال من السلف : كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً .

واما اذا قرن لفظ الايان بالعمل أو بالاسلام فانه يفرق بينهما كما فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

وهو فى القرآن كثير ، وكما فى قول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح^(٥٣) لما سأله جبريل عن الاسلام والايان والاحسان فقال :

« الاسلام : ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمداً
رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم
رمضان ، وتحج البيت .

قال فما الايان ؟ قال :

(٥٢) حديث وفد عبد القيس أخرجه البخارى فى الايمان (١٩/١) وفى العلم (٣٠/١) وفى الآحاد (١٣٦/٨) وغيرها من المواضع - ومسلم فى الايمان (٤٧/١) وراجع تخريجه كاملاً فى «شعب الايمان» (رقم ١٨) .

(٥٣) حديث سوال جبريل أخرجه البخارى (١٨/١) ومسلم (٣٩/١) عن أبى هريرة .
وتفرد مسلم بأخراجه من حديث عمر بن الخطاب وراجع التفصيل فى «شعب الايمان» (١٩) .

« ان تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ،
والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »

قال : فما الاحسان ؟ قال :

« ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك »

ففرق في هذا النص بين الاسلام والايمان لما قرن بين الاسمين وفي ذلك النص ادخل الاسلام في الايمان لما افرد به بالذكر .

وكذلك لفظ «العمل» فان الاسلام المذكور هو من العمل ، والعمل الظاهر هو موجب ايمان القلب ومقتضاه ، فاذا حصل ايمان القلب حصل ايمان الجوارح ضرورة ، وايمان القلب لا بد فيه من تصديق القلب واتقياده ، والا فلو صدق قلبه بان محمداً رسول الله وهو يبيغضه ويحسده ويستكبر عن متابعتة لم يكن قد آمن قلبه .

و «الايمان» وان تضمن التصديق فليس هو مرادفاً له ، فلا يقال لكل مصدق بشئى : انه مؤمن به . فلو قال : انا اصدق بأن الواحد نصف الاثنين ، وان السماء فوقنا والارض تحتنا ، ونحو ذلك مما يشاهده الناس ويعلمونه لم يقل لهذا : انه مؤمن بذلك ؛ بل لا يستعمل الا فيمن أخبر بشئى من الامور الغائبة كقول اخوة يوسف :

﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾^(٥٤)

فانهم اخبروه بما غاب عنه وهم يفرقون بين من آمن له وآمن به فالاول يقال للمخبر ، والثاني يقال للمخبر به كما قال اخوة يوسف :

﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾

وقال تعالى :

(٥٤) سورة يوسف (١٢/١٧)

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ ﴾^(٥٥)

وقال تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٥٦)

ففرق بين ايمانه بالله وايمانه للمؤمنين ؛ لان المراد يصدق المؤمن اذا أخبروه واما ايمانه بالله فهو من باب الاقرار به .

ومنه قوله تعالى عن فرعون وملائه :

﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾^(٥٧) اى نقر لها ونصدقها .

ومنه قوله :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٥٨)

ومنه قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾^(٥٩)

ومن المعنى الآخر قوله تعالى :

(٥٥) سورة يونس(٨٣/١٠)

(٥٦) سورة التوبة(٦١/٩)

(٥٧) سورة المؤمنون(٤٧/٢٣)

(٥٨) سورة البقرة(٧٥/٢)

(٥٩) سورة العنكبوت(٢٦/٢٩)

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(٦٠)

وقوله :

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ
آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْ رُّسُلِهِ﴾^(٦١)

وقوله :

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾^(٦٢)

أى اقر بذلك ومثل هذا فى القرآن كثير .

و (المقصود هنا) ان لفظ «الايان» انما يستعمل فى بعض الاخبار ،
وهو مأخوذ من الأمن ، كما ان الاقرار مأخوذ من قر ، فالمؤمن صاحب
امن ، كما ان المقر صاحب إقرار ، فلا بد فى ذلك من عمل القلب بموجب
تصديقه ، فاذا كان عالما بأن محمدا رسول الله ، ولم يقتن بذلك حبه
وتعظيمه بل كان ييغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فان هذا ليس
بمؤمن به بل كافر به .

ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون واهل الكتاب الذين يعرفونه
كما يعرفون أبناءهم وغير هؤلاء ، فان ابليس لم يكذب خبرا ولا خبرا بل
استكبر عن امر ربه . وفرعون وقومه قال الله فيهم :

(٦٠) سورة القرة (٢/٢)

(٦١) ايضاً (٢/٢٨٥)

(٦٢) ايضاً (٢/١٧٧)

﴿ وَجَعَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾^(٦٣)

وقال له موسى :

﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
بَصَائِرَ ﴾^(٦٤)

وقال تعالى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَاءَهُمْ ﴾^(٦٥)

فجرد علم القلب بالحق ان لم يقتن به عمل القلب بموجب علمه مثل
محبة القلب له ، واتباع القلب له لم ينفع صاحبه ، بل اشد الناس عذابا
يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ، وقد كان النبي ﷺ يقول :

« اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ، ونفس
لا تشبع ، ودعاء لا يسمع ، وقلب لا يخشع »^(٦٦)

ولكن الجهمية ظنوا ان مجرد علم القلب وتصديقه هو الايمان ، وان
من دل الشرع على انه ليس بمؤمن فان ذلك يدل على عدم علم قلبه ،
وهذا من اعظم الجهل شرعا وعقلا . وحقيقتها توجب التسوية بين المؤمن
والكافر ، ولهذا اطلق وكيع بن الجراح واحمد بن حنبل وغيرها من الأئمة
كفرهم بذلك ، فانه من المعلوم ان الانسان يكون عالما بالحق ويبغضه
لغرض آخر ، فليس كل من كان مستكبرا عن الحق يكون غير عالم به ،

(٦٣) سورة البمل (٢٧/١٤)

(٦٤) سورة الاسراء (١٧/١٠٢)

(٦٥) سورة البقرة (٢/١٤٦)

(٦٦) احرجه مسلم في الذكر (٢٠٨٨/٣) من حديث ريد بن ارقم . و احرجه البيهقي في «شعب
الايان» (الشعبة ١٨) من حديث اس . و راجع تحريجه هناك .

وحينئذ فالإيمان لا بد فيه من تصديق القلب وعمله ، وهذا معنى قول السلف : الإيمان قول وعمل .

ثم انه اذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعال الظاهرة ، فان الإرادة الجازمة اذ اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعاً ، وانما ينتفى وجود الفعل لعدم كمال القدرة ، او لعدم كمال الإرادة ، والا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري ، فاذا اقر القلب اقراراً تاماً بان محمداً رسول الله واحبه محبة تامة امتنع مع ذلك ان لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك ، لكن ان كان عاجزاً لخرس ونحوه او لحوف ونحوه لم يكن قادراً على النطق بها .

و«ابوطالب» وان كان عالماً بان محمداً رسول الله وهو محبٌ له فلم تكن محبته له لمحبهته لله ، بل كان يحبه لأنه ابن اخيه فيحبه للقرابة ، واذا احب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة ، فأصل محبوه هو الرئاسة ، فلماذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى ان بالاقرار بها زوال دينه الذي يحبه . فكان دينه احب اليه من ابن اخيه فلم يَقَرَّ بها — فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه ابوبكر الذي قال الله فيه :

﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝
وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ
رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾^(٦٧)

وكما كان يحبه سائر المؤمنين به ، كعمر وعثمان وعلى وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعاً — فكان حبه حبا مع الله لاجبا لله ، ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول وموازرتة لأنه لم يَعْمَلْهُ لله ، والله لا يقبل من العمل الا ما يريد به وجهه ، بخلاف الذي فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

(٦٧) سورة الليل (٩٢/١٧-٢١)

(الدين لا يكمل الا بالعمل)

وهذا مما يحقق ان «الايان ، والتوحيد» لابد فيهما من عمل القلب ، كحب القلب ، فلابد من اخلاص الدين لله ، والدين لا يكون ديناً الا بعمل ، فان الدين يتضمن الطاعة والعبادة ؛ وقد انزل الله عز وجل سورتي الاخلاص^(٦٨)

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

احدهما في توحيد القول والعلم . والثانية في توحيد العمل والارادة ، فقال في الأول :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝
لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

فأمره ان يقول هذا التوحيد وقال في الثاني :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾

فأمره ان يقول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله واخلاص العبادة لله .

و «العبادة» اصلها القصد والارادة . والعبادة اذا أُفِرِدَتْ دخل فيها التوكل ونحوه ، واذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيماً لها ، كما ذكرناه في لفظ الايمان ، قال تعالى :

(٦٨) انظر «تفسير سورة الاخلاص» لشيخ الاسلام - طبعة الدار السلفية .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٦٩)

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾^(٧٠)

فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات ؛ والتوكل من ذلك ، وقد قال في موضع آخر :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

وقال :

﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾^(٧١)

(تنوع دلالة الفاظ القرآن)

ومثل هذا كثيرًا ما يجئ في القرآن : تنوع دلالة اللفظ في عمومه وخصوصه بحسب الافراد والاقتران ؛ كلفظ «المعروف والمنكر» فانه قد قال :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ : تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾^(٧٢)

وقال :

(٦٩) سورة الذاريات (٥٦/٥١)

(٧٠) سورة البقرة (٢١/٢)

(٧١) سورة هود (١٢٣/١١)

(٧٢) سورة آل عمران (١١٠/٣)

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٧٣)

وقال :

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٧٤)

فالمنكر يدخل فيه ماكرهه الله : كما يدخل في المعروف ما يحبه الله .

وقد قال في موضع آخر :

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٧٥)

فعطف المنكر على الفحشاء ، ودخل في المنكر هنا البغى . وقال في
موضع آخر :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى
وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾^(٧٦)

فقرن بالمنكر الفحشاء والبغى .

ومن هذا الباب لفظ «الفقراء ، والمساكين» اذا أفرد احدهما دخل فيه
الآخر ، واذا قرن احدهما بالآخر صار بينهما فرق ؛ لكن هناك احد
الاسمين اعم من الآخر ، وهنا بينهما عموم وخصوص ، فحبة الله وحده
والتوكل عليه وحده وخشية الله وحده ونحو هذا كل هذا يدخل في
توحيد الله تعالى ، قال تعالى في المحبة :

(٧٣) سورة التوبة (٧١/٩)

(٧٤) سورة الاعراف (١٥٧/٧)

(٧٥) سورة العنكبوت (٤٥/٢٩)

(٧٦) سورة النمل (٩٠/١٦)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٧٧)

وقال تعالى :

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾^(٧٨)

وقال تعالى :

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(٧٩)

فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وقال تعالى :

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾^(٨٠)

وقال تعالى :

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾^(٨١)

(٧٧) سورة البقرة (١٦٥/٢)

(٧٨) سورة التوبة (٢٤/٩)

(٧٩) سورة النور (٥٢/٢٤)

(٨٠) سورة التوبة (٥٩/٩)

(٨١) سورة الم نشرح (٨٠٧/٩٤)

فجعل التحسب والرغبة الى الله وحده .
وهذه الامور مبسطة في غير هذا الموضع .

(تحقيق توحيد الالهية)

و (المقصود هنا) ان قول القائل : ﴿ لا اله الا أنت ﴾ فيه افراد
الالهية لله وحده وذلك يتضمن التصديق لله قولاً وعملاً ، فالمشركون كانوا
يَقْرُون بان الله ربّ كل شيء ؛ لكن كانوا يجعلون معه آلهة أخرى ، فلا
يَخْصُونه بالالهية . وتخصيصه بالالهية يوجب ان لا يعبد الا اياه ، وان
لا يسأل غيره ، كما في قوله :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

فان الانسان قديقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه ، لكن في امور
لا يحبها الله ، بل يكرها وينهى عنها ، فهذا وان كان مخلصا له في سؤاله
والتوكل عليه ، لكن ليس هو مخلصا في عبادته وطاعته ، وهذا حال كثير
من اهل التوجهات الفاسدة أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة
لأمرالله ورسوله ، فانهم يعانون على هذه الأمور .

وكثير منهم يستعين الله عليها لكن لما لم تكن موافقة لأمرالله ورسوله
حصل لهم نصيب من العاجلة ، وكانت عاقبتهم عاقبة سيئة ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا
إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمُ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
كَفُورًا ۝ (٨٢) ﴾

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا نَجْنِبَهُ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ﴾^(٨٣)

وطائفة اخرى قديقصدون طاعة الله ورسوله ، لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به . فهولاء يشابون على حسن نيتهم ، وعلى طاعتهم ، لكنهم مخذولون فيما يقصدونه ، إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه ، ولهذا يبتلى الواحد من هولاء بالضعف والجزع تارة ، وبالعجاب أخرى ، فان لم يحصل مراده من الخير كان لضعفه وربما حصل له جزع . فان حصل مراده نظر الى نفسه وقوته فحصل له اعجاب ، وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فيخذل . قال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّرِينَ ﴾^(٨٤) الى قوله : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

(الفرق بين الرياء والعجب)

وكثيرا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب ، فالرياء من باب الاشراك بالخلق ، والعجب من باب الاشراك بالنفس وهذا حال المستكبر ، فالمرأى لا يحقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ والمُعجب لا يحقق

(٨٣) سورة يونس (١٠/١٢)

(٨٤) سورة التوبة (٩/٢٥-٢٧)

قوله : ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فمن حقق قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج
عن الرياء ومن حقق قوله : ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج عن
الاعجاب ، وفي الحديث المعروف :

« ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ،
واعجاب المرء بنفسه »^(٨٥)

وشر من هولاء وهؤلاء من لا تكون عبادته لله ولا استعانته بالله بل
يعبد غيره ويستعين غيره وهؤلاء المشركون من الوجهين .

ومن هولاء من يكون شركه بالشياطين كاصحاب الأحوال الشيطانية
فيفعلون ما تحبه الشياطين من الكذب والفجور ويدعون به بأدعية تحبها
الشياطين ويعزمون بالعزائم التي تطيعها الشياطين مما فيها اشراك بالله .
كما قد بسط الكلام عليهم في مواضع اخر .

وهؤلاء قد يحصل لهم من الخوارق ما يظن انه من كرامات الأولياء .
وانما هو من احوال السحرة والكهان ، ولهذا يجب الفرق بين الأحوال
الايانية القرآنية والأحوال النفسانية والأحوال الشيطانية .

واما القسم الرابع فهم اهل التوحيد الذين اخلصوا دينهم لله فلم
يعبدوا الا اياه ولم يتوكلوا الا عليه .

وقول المكروب : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ قد يستحضر في ذلك احد
النوعين دون الآخر فمن أتم الله عليه النعمة استحضر التوحيد في النوعين ،
فان المكروب همته منصرفة الى دفع ضره وجلب نفعه ، فقد يقول :

(٨٥) روى عن حديث انس وعبدالله بن عباس وابي هريرة وعبدالله بن ابي اوفى وعبدالله بن
عمر .

واخرجه البيهقي في «شعب الايمان» (الشعبة ١١) وتكلم عليه الشيخ الالباني في
«الصحيحة» (١٨٠٢)

« لا اله الا الله » مستشعرا انه لا يكشف الضّر غيرك ، ولا يأتي بالنعمة الا أنت فهذا مستحضّر توحيد الربوبية ، ومستحضّر توحيد السؤال والطلب ، والتوكل عليه ، معرض عن توحيد الالهية الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به وهو أن لا يعبد الا اياه ولا يعبد الا بطاعته وطاعة رسوله ، فمن استشعر هذا في قوله : ﴿ لا اله الا أنت ﴾ كان عابداً لله متوكلاً عليه وكان ممثلاً لقوله :

﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾^(٨٦)

وقوله :

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾^(٨٧)

وقوله :

﴿ وَأَذْكُرْ أَنَّمِ رَبِّكَ وَتَبْتَئِلُ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾^(٨٨)

ثم ان كان مطلوبه محرماً أثم وان قضيت حاجته . وان كان طالباً مباحاً لغير قصد الاستعانة به على طاعة الله وعبادته ، لم يكن آثماً ولا مثاباً ، وان كان طالباً مايعينه على طاعة الله وعبادته لقصد الاستعانة به على ذلك كان مثاباً مأجوراً .

وهذا مما يفرق به بين العبد الرسول وخلفائه ، وبين النبي الملك ، فان نبينا محمداً ﷺ خير بين ان يكون نبياً ملكاً او عبداً رسولاً ،

(٨٦) سورة هود(١١/١٢٢)

(٨٧) ايضاً(١١/٨٨)

(٨٨) سورة المزمل(٧٢/٩٨)

فاختار ان يكون عبداً رسولاً^(٨٩)، فان العبد الرسول هو الذى لا يفعل الا ما أمر به ، ففعله كله عبادة لله ، فهو عبد محض مُتَفَضِّلٌ أَمَرَ مُرْسِلُهُ ، كما ثبت عنه فى صحيح البخارى^(٩٠) انه قال :

« إني والله لا أعطى احداً ولا امنع احداً وانما انا قاسم أضع حيث امرت » .

وهو لم يرد بقوله « لا أعطى احداً ولا امنع » أفراد الله بذلك قدراً وكوناً ، فان جميع المخلوقين يشاركونه فى هذا فلا يعطى احداً ولا يمنع الا بقضاء الله وقدره ، وانما اراد افراد الله بذلك شرعاً وديناً . أى لا أعطى الا من أُمِرْتُ باعطائه ، ولا امنع الا من أُمِرْتُ بمنعه ، فأنا مطيع لله فى إعطائى ومنعى ، فهو يقسم الصدقة والفيء والغنائم كما يقسم المواريث بين اهلها ، لأن الله امره بهذه القسمة .

(مال الله ورسوله ما يصرف فى طاعة الله ورسوله)

ولهذا كان المال حيث اضيف الى الله ورسوله فالمراد به ما يجب ان يُصَرَفَ فى طاعة الله ورسوله ، وليس المراد به انه ملكٌ للرسول ، كما ظنّه طائفة من الفقهاء ، ولا المراد به كونه مملوكاً لله خلقاً وقدراً ، فان جميع الأموال بهذه المثابة ، وهذا كقوله :

﴿ قُلِ الْأَنْقَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾^(٩١)

(٨٩) أخرجه البيهقى فى «شعب الايمان» (رقم ١٥٣) وراجع الكلام عليه هناك .

(٩٠) أخرجه البخارى فى المحسن (٤/٤٩٦) واحمد فى «المسند» (٢/٤٨٢) من حديث أبى هريرة .

(٩١) سورة الانفال (٨/١)

وقوله :

﴿وَاَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ
وَلِلرَّسُولِ﴾^(٩٢) الآية .

وقوله :

﴿وَمَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ
مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾^(٩٣) الى قوله ﴿وَمَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى
رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي
الْقُرْبَى﴾ الآية .

فذكر في الفئء ما ذكر في الخمس .

فظن طائفة من الفقهاء ان الاضافة الى الرسول تقتضى انه يملكه ، كما
يملك الناس املاكهم . ثم قال بعضهم : ان غنائم بدر كانت ملكا للرسول .
وقال بعضهم : ان الفئء واربعة اخماسه كان ملكا للرسول . وقال بعضهم :
ان الرسول انما كان يستحق من الخمس خُمسه . وقال بعض هؤلاء :
وكذلك كان يستحق من خمس الفئء خمسة ، وهذه الاقوال توجد في كلام
طوائف من اصحاب الشافعى واحمد وابى حنيفة وغيرهم ، وهذا غلط من
وجوه :

(دلائل خطأ رأى الفقهاء)

(منها) ان الرسول لم يكن يملك هذه الاموال كما يملك الناس اموالهم ،

(٩٢) ايضاً (٤١/٨)

(٩٣) سورة الحشر (٧-٦/٥٩)

ولا كما يتصرف الملوك في ملكهم ، فان هؤلاء وهؤلاء لهم ان يصرفوا اموالهم في المباحات ، فاما ان يكون مالكا له فيصرف في اغراضه الخاصة ، واما ان يكون ملكا له فيصرفه في مصلحة ملكه ، وهذه حال النبي الملك كداود وسليمان . قال تعالى :

﴿ فَأَمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(١٤)

اي اعط من شئت واحرم من شئت لاحساب عليك ، وبنينا كان عبداً رسولاً لا يعطى الا من امر باعطائه ، ولا يمنع الا من امر بمنعه ، فلم يكن يصرف الأموال الا في عبادة الله وطاعة له .

(ومنها) ان النبي لا يُورَث ولو كان ملكا ، فان الأنبياء لا يورثون فاذا كان ملوك الأنبياء لم يكونوا ملاكا كما يملك الناس اموالهم ، فكيف يكون صفوة الرسل الذي هو عبداً رسولاً مالكا .

(ومنها) ان النبي ﷺ كان ينفق على نفسه وعياله قدر الحاجة ، ويصرف سائر المال في طاعة الله لا يستفضله ، وليست هذه حال الملأك ، بل المال الذي يتصرف فيه كله هو مال الله ورسوله ، بمعنى ان الله امر رسوله ان يصرف ذلك المال في طاعته ، فتجب طاعته في قسمه ، كاتجب طاعته في سائر ما يأمر به ؛ فانه من يطع الرسول فقد اطاع الله ، وهو في ذلك مُبَلَّغٌ عن الله .

والاموال التي كان يقسمها النبي ﷺ على وجهين :

(منها) : مَا تَعَيَّنَ مُسْتَحَقُّهُ وَمَصْرَفُهُ كَالْمَوَارِيثِ .

(ومنها) ما يحتاج الى اجتهاده ونظره ورأيه ، فان ما امر الله به منه ما هو محدود بالشرع : كالصلاة الخمس ، وطواف الاسبوع بالبيت ، ومنه

ما يرجع في قدره الى اجتهاد المأمور فيزيده وينقصه بحسب المصلحة التي يجبهها الله .

فن هذا ما اتفق عليه الناس ، ومنه ما تنازعوا فيه : كتنازع الفقهاء فيما يجب للزوجات من النفقات : هل هي مقدرة بالشرع ؟ ام يرجع فيها الى العرف ، فتختلف في قدرها وصفتها باختلاف احوال الناس ؟ . وجهور الفقهاء على القول الثاني ، وهو الصواب لقول النبي ﷺ لهند :

« خَذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدِكِ بِالْمَعْرُوفِ »^(٩٥)

وقال ايضا : في خطبة المعروفة :

« لِلنِّسَاءِ كِسْوَتُهُنَّ وَنَفَقَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ »^(٩٦)

وكذلك تنازعوا ايضا فيما يجب من الكفارات : هل هو مقدر بالشرع أو بالعرف ؟

فما أضيف الى الله والرسول من الأموال كان المرجع في قسمته الى امر النبي ﷺ ؛ بخلاف ما سُميَ مستحقوه كالموارث ، ولهذا قال النبي ﷺ عام حنين :

« ليس لي مما افاء الله عليكم الا الخمس ، والخمس مردود عليكم »^(٩٧)

(٩٥) أخرجه البخاري في البيوع (٣٦/٣) وفي النفقات (١٩٣/٦) ومسلم في الاقضية (١٣٣٨/٢) رقم (٧) والنسائي في آداب القضاة (٢٤٦/٨-٢٤٧) وابن ماجه في التجارات (٧٦٩/٢) رقم (٢٢٩٣) والدارمي (٥٥٥) .

(٩٦) راجع خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع عند مسلم (٨٨٦/١-٨٩٢) رقم (١٢١٨) وابن داود (٤٥٥-٤٦٤) رقم (١٩٠٥) وابن ماجه (١٠٢٢/٢-١٠٢٧) رقم (٣٠٧٤) .

(٩٧) أخرجه ابوداود (١٨٨/٣) رقم (٢٧٥٥) والحاكم (٦١٦/٣) والبيهقي في «سننه» (٣٣٩/٦) عن عمرو بن عبسة

اي ليس له بحكم القسم الذى يرجع فيه الى اجتهاده ونظره الخاص
الا الخمس ، ولهذا قال : « وهو مردود عليكم » بخلاف اربعة اخماس
الغنية فانه لمن شهد الوقعة .

ولهذا كانت الغنائم يقسمها الأمراء بين الغانمين ، والخمس يرفع الى
الخلفاء الراشدين المهديين الذى خلفوا رسول الله ﷺ في امته فيقسمونها
بامرهم ، فاما اربعة الاخماس فانما يرجعون فيها ليعلم حكم الله ورسوله
كاستتقى المستتقى ، وكما كانوا فى الحدود لمعرفة الامر الشرعى ، والنبي ﷺ
اعطى المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين ما اعطاهم ؛ ف قيل : إن ذلك كان من
الخمس ؛ وقيل : انه كان من اصل الغنية ؛ وعلى هذا القول فهو فعل
ذلك لطيب نفوس المؤمنين بذلك ؛ ولهذا أجاب من عتب من الأنصار
بما زال عتبه واراد تعويضهم عن ذلك .

ومن الناس من يقول الغنية قبل القسمة لم يملكها الغانمون ؛ وان
للامام ان يتصرف فيها باجتهاده كما هو مذكور فى غير هذا الموضع .

(العباداة والسوال وسيلتان لتحقيق توحيد الالهية وتوحيد الربوبية)

فان المقصود هنا بيان حال العبد المخلص لله الذى يعبده ويستعينه ،
فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

= واخرج ابوداود (١٤٢/٣-١٤٣) رقم ٢٦٩٤ والنسائي (١٣١/٧) واحمد والبيهقى (٢٣٧-٢٣٦/٦) عن
عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده بمثله . وراجع «ارواء الغليل» (١٢٤٠)

توحيد الالهية وتوحيد الربوبية ؛ وان كانت الالهية تتضمن الربوبية ؛
والربوبية تستلزم الالهية ؛ فان احدهما اذا تَضَمَّنَ الآخرَ عند الانفراد لم يمنع
ان يختص بمعناه عند الاقتِرَانِ ، كما في قوله :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ﴾^(٩٨)

وفي قوله :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

فجمع بين الاسمين : اسم الاله واسم الرب . فان «الاله» هو المعبود الذى
يستحق ان يعبد . و«الرب» هو الذى يرب عبده فيدبره .

(الله والرب)

ولهذا كانت العبادة متعلقة باسمه الله ، والسؤال متعلقا باسمه الرب ،
فان العبادة هى الغاية التى لها خلق الخلق ، والالهية هى الغاية ،
الربوبية تتضمن خلق الخلق وانشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم ، والمصلى
اذا قال :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

فبدأ بالمقصود الذى هو الغاية على الوسيلة التى هى البداية ، فالعبادة
غاية مقصودة ، والاستعانة وسيلة اليها ، تلك حكمة وهذا سبب ، والفرق
بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف ، ولهذا يقال : أول الفكرة آخر
العمل وأول البغية آخر الدرك .

فالعلة الغائية متقدمة في التصور والارادة وهي متأخرة في الوجود ،
فالْمُؤْمِن يقصد عبادة الله ابتداء وهو يعلم ان ذلك لا يحصل إلا باعائه
فيقول :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

ولما كانت العبادة متعلقة باسمه : الله تعالى جاءت الأذكار المشروعة
بهذا الاسم مثل كلمات الأذان ، الله اكبر ، الله اكبر . ومثل الشهادتين :
اشهد ان لا اله الا الله . اشهد ان محمدا رسول الله ومثل التشهد : «التحيات
لله» ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير : سبحان الله ، والحمد لله ،
لا اله الا الله ، الله اكبر .

وأما السؤال فكثيرا مايجيء باسم الرب كقول آدم وحواء :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٩٩)

وقول نوح :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ
عِلْمٌ ﴾^(١٠٠)

وقول موسى :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾^(١٠١)

قول الخليل :

(٩٩) سورة الاعراف(٢٣/٧)

(١٠٠) سورة هود(٤٧/١١)

(١٠١) سورة القصص(١٦/٢٨)

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ
عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ^(١٠٢) ۝ الآية .

وقوله مع اسماعيل :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(١٠٣)

وكذلك قول الذين قالوا :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً
وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ^(١٠٤) ومثل هذا كثير .

وقد نقل عن مالك انه قال : أكره للرجل ان يقول في دعائه :
ياسيدى ! ياسيدى ! يا حنان ! يا حنان ! ولكن يدعو بما دعت به
لأنبياء ، ربنا ! ربنا ! نقله عنه العتي ^(١٠٥) في العتية .

وقال تعالى : عن اولى الالباب :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ

(١٠٢) سورة ابراهيم (١٤/٣٧)

(١٠٣) سورة البقرة (٢/١٢٧)

(١٠٤) ايضاً (٢٠١/٢)

(١٠٥) العتي ، ابو عبدالله ، محمد بن احمد بن عبدالعزير بن عتبة بن حيد بن عتبة بن
ابي سفيان ، الاموى السفياني القرطبي ، المالكي (م ٢٥٥هـ)

فقيه الاندلس ، وصاحب كتاب العتية رجل وأحد عن سحنون وأصع
وبطرائها ، وكان حافظاً للسائل ، حامعاً لها ، عالماً بالموارل جمع المستخرجة
(وهى العتية) واكثر فيها من الروايات المطروحة ، والمسائل الشادة

راجع ترجمته في «تاريخ علماء الاندلس» (٢/٧٠٦) «السير» (١٢/٣٢٥-٣٣٦)
«الواقى» (٢/٣٠) «ترتيب المدارك» (٣/١٤٤-١٤٦) «الديباح المذهب» (٢٣٨)

هَذَا بِأَمْرٍ لَّكَ فَتَنَّا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٠٦﴾ الْآيَات .

فاذا سبق الى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه الرب .
وان سأله باسمه الله لتضمنه اسم الرب كان حسناً ، واما اذا سبق الى قلبه
قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك . اذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله ، واذا قصد
الدعاء باسم الرب ، ولهذا قال يونس :

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾

وقال آدم :

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾

فان يونس عليه السلام ذهب مغاضبا ، وقال تعالى :

﴿قَاصِرٌ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ ﴿١٠٩﴾

وقال تعالى :

﴿قَالَتْقَمَّةُ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿١١٠﴾

ففعل ما يلام عليه فكان المناسب لحاله ان يبدأ بالثناء على ربه ،
والاعتراف بانه لاله الا هو فهو الذى يستحق ان يُعبد دون غيره
فلا يُطاع الهوى ، فان اتباع الهوى يضعف عبادة الله وحده .

(١٠٦) سورة العنكبوت (١٩١/٣)

(١٠٧) سورة الأنبياء (٨٧/٢١)

(١٠٨) سورة الاعراف (٢٣/٧)

(١٠٩) سورة القلم (٤٨/٦٨)

(١١٠) سورة الصافات (١٤٢/٣٧)

وقد روى ان يونس عليه السلام ندم على ارتفاع العذاب عن قومه بعد ان اظلمهم وخاف ان ينسبوه الى الكذب فغاضب ، وفعل ما اقتضى الكلام الذى ذكره الله تعالى وان يقال ﴿ لا اله الا الله ﴾ وهذا الكلام يتضمن براءة ماسوى الله من الالهية ، سواء صدر ذلك عن هوى النفس او طاعة الخلق او غير ذلك . ولهذا قال :

﴿ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

والعبد يقول مثل هذا الكلام فيما يظنه وهو غير مطابق ، وفيما يريده وهو غير حسن .

وأما آدم عليه السلام فانه اعترف اولا بذنبه فقال : ﴿ ظلمنا انفسنا ﴾ ولم يكن عند آدم من ينازعه الارادة لما امر الله به . مما يزاحم الالهية بل ظن صدق الشيطان الذى :

﴿ قَاتَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِينَ النَّاصِحِينَ ، فَدَلَاهُمَا
بِغُرُورٍ ﴾^(١١١)

فالشيطان غرهما وأظهر نصحهما فكانا فى قبول غروره وما اظهر من نصحه حالهما مناسباً لقولهما : ﴿ ربنا ظلمنا انفسنا ﴾ لما حصل من التفریط ، لا لأجل هوى وحظ يزاحم الالهية ، وكانا محتاجين الى ان يربها ربوبية تكل علمها وقصدها ، حتى لا يغترّا بمثل ذلك ، فهما يشهدان حاجتهما الى الله ربها الذى لا يقضى حاجتهما غيره .

وذوالنؤن شهد ما حصل من التقصير فى حق الالهية بما حصل من المغاضبة وكراهة انجاء اولئك ، ففى ذلك من المعارضة فى الفعل لحب شئ آخر ما يوجب تجريد محبته لله وتألمه له وان يقول : (لا اله الا انت) فان قول العبد : لا اله الا انت ، يحوان يتخذ الهه هواه .
وقد روى :

(١١١) سورة الاعراف (٢١/٧-٢٢)

« ماتحت أديم السماء الة يُعبد اعظم عندالله من هوى
مُتَّبِع »^(١١٢)

فكّل يونس صلوات الله عليه تحقيق الهيته لله ، ومحو الهوى الذى
يتخذ الها من دونه . فلم يبق له صلوات الله عليه وسلامه عند تحقيق قوله
« لا اله الا انت » ارادة تزاحم الهية الحق ، بل كان مخلصاً لله الدين اذ كان
من افضل عبادالله المخلصين .

و(ايضاً) فثل هذه الحال تعرض لمن تعرض له ، فيبقى فيه نوع
مغاضبة للقدر ومعارضة له فى خلقه وامره ، ووساوس فى حكته
ورحمته ، فيحتاج العبد ان ينفى عنه شيئين : الآراء الفاسدة والأهواء
الفاسدة ، فيعلم ان الحكمة والعدل فيما اقتضاه علمه وحكته لا فيما اقتضاه
علم العبد وحكته ، ويكون هواه تبعاً لما امرالله به ، فلا يكون له مع
امرالله وحكمه هوى يخالف ذلك . قال الله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ
بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ
وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾^(١١٣)

وقد روى عنه ﷺ انه قال :

« والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه
تبعاً لما جئت به »^(١١٤) رواه ابوحاتم فى صحيحه .

(١١٢) رواه الطبرانى فى «الكبير» عن ابى امامة . وقال الهيثمى : فيه الحسن بن دينار وهو
متروك الحديث (مجمع الزوائد، ١/١٨٨) .

(١١٣) سورة النساء (٦٥/٤)

(١١٤) ورواه البغوى فى «شرح السنة» (٢١٣/١)

وفي الصحيح^(١١٥)

« ان عمر قال له : يا رسول الله ! والله لأنت احب الي
من نفسى . قال : الآن يا عمر »

وفي الصحيح^(١١٦) عنه عليه السلام انه قال :

« لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده
ووالده والناس اجمعين »

وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا . وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ
كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ
بِأَمْرِهِ ﴾^(١١٧)

فاذا كان الايمان لا يحصل حتى يحكم العبد رسوله ويسلم له ، ويكون
هواه تبعًا لما جاء به ، ويكون الرسول والجهاد في سبيله مقدمًا على حب
الانسان نفسه وماله واهله ، فكيف في تحكيمه الله تعالى والتسليم له ؟ !
فمن رأى قومًا يستحقون العذاب في ظنه ، وقد غفر الله لهم ورحمهم ، وكره
هو ذلك ، فهذا امانا يكون عن ارادة تخالف حكم الله واما عن ظن يخالف
علم الله ، والله عليم حكيم . واذا علمت انه عليم ، وانه حكيم لم يبق
لكراهية ما فعله وجه ، وهذا يكون فيما امر به وفيما خلقه ولم يأمرنا
ان نكرهه ونغضب عليه .

(١١٥) اخرجه البخارى فى الايمان والنذور (٢١٨/٧) واحمد فى «المسند» (٢٣٦/٤)

(١١٦) رواه البخارى عن ابى هريرة وعن انس (٩/١) ومسلم عن انس (٦٧/١) وهو عند
البيهقى فى «شعب الايمان» (الشعبة ١٤) .

(١١٧) سورة التوبة (٢٤/٩)

فأما ما امرنا بكراهته من الموجدات : كالكفر والفسوق والعصيان
 فعلينا ان نطيعه في امره بخلاف توبته على عباده وانجائه اياهم من العذاب
 فان هذا من مفعولاته التي لم يأمرنا ان نكرهها ، بل هي مما يحبها فانه
 يحب التوابين ويحب المتطهرين . فكراهة هذا من نوع اتباع الارادة
 المزاحمة للالهية . فعلى صاحبها ان يحقق توحيد الالهية فيقول : لاله
 الا انت .

فعلينا ان نحب ما يحب ، ونرضى ما يرضى ، ونأمر بما يأمر ، وننهى
 عما ينهى . فاذا كان ﴿ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾^(١١٨)
 فعلينا ان نحبهم ؛ ولانآله مراداتنا المخالفة لمحابه .

(عصمة الأنبياء)

والكلام في هذا المقام مبنى على «اصل» : وهو أن الأنبياء صلوات الله
 عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه ، وفي تبليغ رسالاته
 باتفاق الأمة ، ولهذا وجب الايمان بكل ما أوتوه كما قال تعالى :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى
 إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ،
 وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ
 رَبِّهِمْ ؛ لَا تَفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ
 فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا
 فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّٰهُ وَهُوَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ ﴾^(١١٩)

(١١٨) راجع سورة البقرة (٢/٢٢٢)

(١١٩) نفس السورة (٢/١٣٦-١٣٧)

وقال :

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾^(١٢٠)

وقال :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ
آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْ رُّسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾^(١٢١)

بخلاف غير الأنبياء فانهم ليسوا معصومين كاعصم الأنبياء ، ولو كانوا
أولياء الله ، ولهذا من سب نبيا من الأنبياء قتل باتفاق الفقهاء ، ومن سب
غيرهم لم يقتل .

وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة
والرسالة ؛ فان « النبي » هو المنبئ عن الله ، و« الرسول » هو الذي
ارسله الله تعالى ، وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ، والعصمة
فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين .

(تفنيد قصة الغرائق)

ولكن هل يصدر ما استدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله
آياته ؟ هذا فيه قولان : والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك .

(١٢٠) ايضاً (١٧٧/٢)

(١٢١) ايضاً (٢٨٥/٢)

والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة النجم بقوله : تلك الغرائق العلى ، وان شفاعتهم لترجى وقالوا : ان هذا لم يثبت ، ومن علم انه ثبت : قال هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم ولم يلفظ به الرسول ﷺ ، ولكن السؤال وارد على هذا التقدير ايضا ، وقالوا في قوله :

﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾^(١٢٢) هو حديث النفس .

وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا هذا منقول نقلا ثابتا لا يمكن القدح فيه والقرآن يدل عليه بقوله :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١٢٣)

فقالوا الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير والحديث ، والقرآن يوافق ذلك فان نسخ الله لما يلقي الشيطان واحكامه آياته انما يكون لرفع ما وقع في آياته ، وتمييز الحق من الباطل حتى

(١٢٢) سورة الحج(٢٢/٥٢)

وللشيخ المحدث ناصرالدين الالباني رسالة مفيدة سماها «نصب المجانيق على قصة الغرائق» .

(١٢٣) سورة الحج(٢٢/٥٤-٥٢)

لا تختلط آياته بغيرها ، وجعل مالقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم انما يكون اذا كان ظاهرا يسمعه الناس لاباطنا في النفس والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ .

وهذا النوع أدل على صدق الرسول ﷺ وبعده عن الهوى من ذلك النوع ، فانه اذا كان يأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله وهو مصدق في ذلك ، فاذا قال عن نفسه ان الثاني هو الذي من عند الله وهو الناسخ وان ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك كان أدل على اعتاده للصدق وقوله الحق ، وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها^(١٢٤) :

« لو كان محمد كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية ﴿ وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾^(١٢٥) . »

ألا ترى ان الذي يعظم نفسه بالباطل يريد ان ينصر كل ماقاله ولو كان خطأ ، فبيان الرسول ﷺ ان الله احكم آياته ونسخ ما لقاها الشيطان هو ادل على تحريره للصدق وبرأته من الكذب ، وهذا هو المقصود بالرسالة فانه الصادق المصدوق ﷺ تسليما ، ولهذا كان تكذيبه كفرا محضا بلاريب .

واما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع ، هل هو ثابت بالعقل او بالسمع ؟ ومتنازعون في العصمة من الكبائر والصغائر او من بعضها ، ام هل العصمة انما هي الاقرار عليها لا في فعلها ؟ ام لا يجب القول بالعصمة الا في التبليغ فقط ؟ وهل تجب العصمة من الكفر

(١٢٤) أخرجه البخارى في التوحيد (١٧٥/٨) ومسلم في الايمان (١٦٠/١ رقم ٢٨٨) والترمذى في التفسير (٣٥٢/٥ رقم ٣٢٠٧) واحد في «المسند» (٢٤١/٦) وانظر «الدر المنثور» (٦١٣/٦) .

(١٢٥) سورة الاحزاب (٣٧/٢٣)

والذنوب قبل المبعث ام لا ؟ والكلام على هذا مبسوط في غير هذا
الموضع .

والقول الذى عليه جمهور الناس ، وهو الموافق للآثار المنقولة عن
السلف اثبات العصمة من الاقرار على الذنوب مطلقا ، والرد على من
يقول انه يجوز اقرارهم عليها ، وحجج القائلين بالعصمة اذا حررت انما
تدل على هذا القول .

وحجج النفاة لاتدل على وقوع ذنب اقر عليه الانبياء ، فان القائلين
بالعصمة احتجوا بأن التأتى بهم مشروع ، وذلك لا يجوز الا مع تجويز
كون الأفعال ذنوبًا ، ومعلوم ان التأتى بهم انما هو مشروع فيما أُقِرُّوا عليه
دون ما نُهوا عنه ورجعوا عنه ، فأما ما نسخ من الأمر والنهى فلا يجوز
جعله مأمورا به ولا منهيًا عنه ، فضلا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه .

وكذلك ما احتجوا به من ان الذنوب تُنافى الكمال ، او انها ممن
عظمت عليه النعمة اقبح ، او انها توجب التنفير ، او نحو ذلك من
الحجج العقلية ، فهذا انما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع ، والا
فالتوبة النصوح التى يقبلها الله يرفع بها صاحبها الى اعظم مما كان عليه ،
كما قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل
الخطيئة .

وقال آخر : لو لم تكن التوبة احب الأشياء اليه ، لما ابتلى بالذنوب
اكرم الخلق عليه .

وقد ثبت في الصحاح^(١٢٦) حديث التوبة :

« الله افرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا » الخ .

(١٢٦) أخرجه البخارى فى الدعوات (١٤٦/٧) ومسلم فى التوبة (٢١٠٤/٣) رقم (٢٧٤٧) من حديث
انس

واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان» (الشعبة ٤٧) وراجع تخريجه فيه .

وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾^(١٢٧)

وقال تعالى :

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾^(١٢٨).

وقد ثبت في الصحيح^(١٢٩) حديث الذى يعرض الله صغار ذنوبه ويخفى عنه كبارها وهو مشفق من كبارها ان تظهر ، فيقول الله له :

« انى قد غفرتها لك وابدلتك مكان كل سيئة حسنة فيقول : اى رب ! ان لى سيئات لم اراها » .

اذا رأى تبديل السيئات بالحسنات طلب رؤية الذنوب الكبار التى كان مشفقاً منها ان تظهر ، ومعلوم ان حاله هذه مع هذا التبديل اعظم من حاله لو لم تقع السيئات ولا التبديل .

وقال طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير : ان العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، وان العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة ، يعمل الحسنة فيُعْجَب بها ويفتخرُ بها حتى تدخله النار ، ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة .

وقد قال تعالى :

(١٢٧) سورة البقرة (٢/٢٢٢)

(١٢٨) سورة الفرقان (٢٥/٧٠)

(١٢٩) اخرجه مسلم في الايمان (١/١٧٧ رقم ١٩٠) والترمذى فى صفة جهنم (٤/٧١٣ رقم ٢٥٩٦) واحد فى «المسند» (٥/١٥٧-١٧٠) والبيهقى فى «الاسماء والصفات» (٧٤) .

﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ، لِيُعَذِّبَ اللَّهُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ
وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(١٣٠)

فغاية كل انسان ان يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب الله
عليهم .

وفي الكتاب والسنة الصحيحة والكتب التي انزلت قبل القرآن مما
يوافق هذا القول ما يتعذر إحصاؤه .

والرادون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية
والدهرية لنصوص «الأسماء والصفات» ونصوص «القدر» ونصوص «المعاد»
وهي من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التي يعلم بالاضطرار انها
باطلة ، وانها من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، وهؤلاء يقصد احدهم
تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم ، ويريد الايمان بهم فيقع في الكفر بهم .

ثم ان العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والاجماع ، وهي « العصمة
في التبليغ » لم ينتفعوا بها إذ كانوا لا يَقْرُؤُونَ بموجب ما بَلَّغْتَهُ الأنبياء ،
وانما يقرون بلفظ حَرَفُوا معناه ، أو كانوا فيه كالأميين الذين لا يعلمون
الكتاب الا أُمَانِي ، والعصمة التي كانوا ادعوا لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بها
ولاحاجة بهم اليها عندهم ، فانها متعلقة بغيرهم لا بما امروا بالايمان به ،
فيتكلم احدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من الله ، ويدع ما يجب عليه
من تصديق الأنبياء وطاعتهم ، وهو الذي تحصل به السعادة وبضده تحصل
الشقاوة قال تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَحْمِلٌ وَعَلَيْكُمْ مَاحْمِلَتُمْ ﴾^(١٣١) الآية .

(١٣٠) سورة الاحزاب (٧٣/٣٣)

(١٣١) سورة النور (٥٤/٢٤)

(توبة الأنبياء واستغفارهم)

والله تعالى لم يذكر في القرآن شيئاً من ذلك عن نبي من الأنبياء الا مقروناً بالتوبة والاستغفار ، كقول آدم وزوجته :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(١٣٢)

وقول نوح :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(١٣٣)

وقول الخليل عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾^(١٣٤)

وقوله :

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾^(١٣٥)

(١٣٢) سورة الاعراف (٢٣/٧)

(١٣٣) سورة هود (٤٧/١١)

(١٣٤) سورة ابراهيم (٤١/١٤)

(١٣٥) سورة الشعراء (٨٢/٢٦)

وقول موسى :

﴿ أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ
وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا
هَذَا إِلَيْكَ ﴾^(١٣٦)

وقوله :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾^(١٣٧)

وقوله :

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١٣٨)

وقوله تعالى عن داود :

﴿ فَاسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ، فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ
وَأَنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾^(١٣٩)

وقوله تعالى عن سليمان :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُتَبَغَى لِأَحَدٍ مِّنْ
بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾^(١٤٠)

(١٣٦) سورة الاعراف (١٥٥/٧-١٥٦)

(١٣٧) سورة القصص (١٦/٢٨)

(١٣٨) سورة الاعراف (١٤٣/٧)

(١٣٩) سورة ص (٢٤/٣٨-٢٥)

(١٤٠) ايضاً (٣٥/٣٨)

وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنبا فلماذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار . بل قال :

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾^(١٤١)

فاخبر انه صرف عنه السوء والفحشاء ، وهذا يدل على انه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء .

وأما قوله :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾^(١٤٢)

فالهم اسم جنس تحته «نوعان» كما قال الامام احمد اهم هان : هم خطرات ، وهم إصرار .

وقد ثبت في الصحيح^(١٤٣) عن النبي ﷺ :

« ان العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، وإذا تركها لله كتبت له حسنة وان عملها كتبت له سيئة واحدة »

وان تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة .

(١٤١) سورة يوسف (٢٤/١٢)

(١٤٢) نفس الآية

(١٤٣) أخرجه البخارى فى الرقاق (١٨٧/٧) ومسلم فى الايمان (١١٨/١) رقم (١٣١) عن ابن عباس

وأخرجه البيهقى فى «شعب الايمان» (حديث رقم ٢٢٨) وانظر تخريجه فيه .

ويوسف ﷺ هم ما تركه الله ، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لاختلاصه ، وذلك انما يكون اذا قام المقتضى للذنب وهو الهم ، وعارضه الاختلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله .

فيوسف عليه السلام لم يصدر منه الا حسنة يثاب عليها ، وقال تعالى :

﴿ اِنَّ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا اِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوْا فَاِذَا هُمْ مُبْصِرُوْنَ ﴾^(١٤٤)

وأما ما ينقل : من انه حل سراويله ، وجلس مجلس الرجل من المرأة ، وانه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده ، وأمثال ذلك ، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله ، وما لم يكن كذلك فانما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من اعظم الناس كذباً على الأنبياء وقدحاً فيهم ، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله ، لم ينقل من ذلك احد عن نبينا ﷺ حرفاً واحداً .

(خطاء المفسرين)

وقوله :

﴿ وَمَا اُبْرِئُ نَفْسِيْ اِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ اَلَا مَرْجِمَ رَبِّىْ ﴾^(١٤٥)

فن كلام امرأة العزيز ، كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينه ، لا يرتاب فيها من تدبر القرآن ، حيث قال تعالى :

(١٤٤) سورة الاعراف (٢٠١/٧)

(١٤٥) سورة يوسف (٥٣/١٢)

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ
 قَالَ : أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَأَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي
 قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ، قَالَ
 مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ
 مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ
 حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ
 الصَّادِقِينَ ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ
 لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ
 لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَارَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴾^(١٤٦)

فهذا كله كلام امرأة العزيز ، ويوسف إذ ذاك في السجن ، لم يحضر
 بعد الى الملك ، ولا سمع كلامه ولا رآه ؛ ولكن لما ظهرت براءته في غيبته
 — كما قالت امرأة العزيز : ﴿ ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب ﴾ اى
 لم اخنه في حال مغيبه عني وان كنت في حال شهوده راودته — فحينئذ :

﴿ قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ،
 فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ : إِنَّكَ آلِيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾^(١٤٧)

وقد قال كثير من المفسرين ان هذا من كلام يوسف ، ومنهم من
 لم يذكر الا هذا القول ، وهو قول في غاية الفساد ، ولادليل عليه ؛ بل
 الادلة تدل على تقيضه ، وقد بسط الكلام على هذه الامور في غير هذا
 الموضع .

و (المقصود هنا) ان ماتضمنته « قصة ذى النون » مما يلام عليه كله
 مغفور بذله الله به حسنات ، ورفع درجاته ، وكان بعد خروجه من
 بطن الحوت وتوبته اعظم درجة منه قبل ان يقع ما وقع ، قال تعالى :

(١٤٦) ايضا (١٢/٥٠-٥٣)

(١٤٧) ايضا (١٢/٥٤)

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ
 إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ
 لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ
 الصَّالِحِينَ ۝﴾ (١٤٨)

وهذا بخلاف حال التقام الحوت فانه قال :

﴿ قَالَتْقَمَّةُ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝﴾ (١٤٩)

فاخبر انه في تلك الحال مليم ، و « الملیم » الذى فعل مايلام عليه ،
 فالملام في تلك الحال لا في حال نبذه بالعراء وهو سقيم ، فكانت حاله
 بعد قوله : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ارفع
 من حاله قبل ان يكون ماكان ، والاعتبار بكمال النهاية لا بماجرى في
 البداية ، والاعمال بخواتيمها .

والله تعالى خلق الانسان واخرجه من بطن امه لا يعلم شيئا ، ثم علّمه
 فنقله من حال النقص الى حال الكمال ، فلا يجوز ان يعتبر قدر الانسان
 بماوقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال كاله ، ويونس عَلَيْهِ السَّلَامُ
 وغيره من الأنبياء في حال النهاية حالهم اكمل الاحوال .

ومن هنا غلط من غلط في تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين
 فانهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين وتقصهم فغلطوا ؛
 ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان ، ورضى الرحمن ،
 وزوال كل ما فيه نقص وملام ، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام ، حتى
 استقر بهم القرار :

(١٤٨) سورة القلم (٦٨/٤٨-٥٠)

(١٤٩) سورة الصافات (٣٧/١٤٢)

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(١٥٠)

فاذا اعتبرت تلك الحال ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين والا فهل يجوز لعامل ان يعتبر حال احدهم قبل الكمال في مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب .

ولواعتبر ذلك لاعتبر احدهم وهو نطفة ثم علقه ، ثم مضغة ، ثم حين نفخت فيه الروح ، ثم هو وليد ، ثم رضيع ثم فطيم ، الى أحوال آخر ؛ فعلم ان الواحد في هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التي يستحق بها كال المدح والتفضيل ، وتفضيله بها على كل صنف وجيل ؛ وانما فضله باعتبار المال ، عند حصول الكمال .

(العبرة بالعاقبة في الأفضلية)

وما يظنه بعض الناس انه من ولد على الاسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافراً فأسلم ليس بصواب ؛ بل الاعتبار بالعاقبة وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل . فانه من المعلوم ان السابقين الاولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم هم افضل ممن ولد على الاسلام من اولادهم وغير اولادهم ؛ بل من عرف الشر وذاقه ، ثم عرف الخير وذاقه فقد تكون معرفته بالخير ومحبه له ، ومعرفته بالشر وبغضه له أكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويذوقهما كما ذاقهما ؛ بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف انه شر ، فاما ان يقع فيه ، وإما ان لا ينكره كما انكره الذي عرفه .

ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : انما تنقض عرى الاسلام
عُرْوَةٌ عُرْوَةٌ اذا نشأ في الاسلام من لم يعرف الجاهلية .

وهو كما قال عمر ؛

فان كمال الاسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقام ذلك
بالجهاد في سبيل الله . ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره ، فقد لا يكون
عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه ، ولا يكون عنده من الجهاد
لا هله ما عند الخبير بهم ، ولهذا يوجد الخبير بالشر واسبابه اذا كان حسن
القصد عنده من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره .

ولهذا كان الصحابة رضى الله عنهم اعظم ايمانا وجهادا من بعدهم ،
لكمال معرفتهم بالخير والشر ، وكال محبتهم للخير وبغضهم للشر ، لما
علموه من حسن حال الاسلام والايمان والعمل الصالح ، وقبح حال
الكفر والمعاصي ، ولهذا يوجد من ذاق الفقر والمرض والخوف احرص على
الغنى والصحة والأمن ممن لم يذق ذلك . ولهذا يقال :

وَالضِدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ^(١٥١)

ويقال^(١٥٢) :

وَبِضِدِّهَا تَبَيَّنَ الْأَشْيَاءُ

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لست بخبٍ ،
ولا يخذعني الخب .

(١٥١) هو عجز بيت صدره : ضَدَانِ لما استجمعا حسنا .

منسوب للبحترى

(١٥٢) عجز بيت صدره : ونذيمهم وبهم عرفنا فضله .

وهو لأبي الطيب المتنبي ، راجع ديوانه (٢٢/١) .

فالقلب السليم المحمود هو الذى يريد الخير لا الشر ، وكال ذلك بان يعرف الخير والشر ، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به .

وليس المراد ان كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون اعلم بذلك واکره له ممن لم يذقه مطلقا ؛ فان هذا ليس بمطرد ، بل قد يكون الطبيب اعلم بالأمراض من المرضى ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام اطباء الأديان ، فهم اعلم الناس بما يَصْلُحُ القلوب وَيُفْسِدُهَا ، وان كان احدهم لم يذق من الشر ماذاقه الناس .

ولكن المراد ان من الناس من يحصل له ، بذوقه الشر من المعرفة به ، والنفور عنه ، والمحبة للخير اذا ذاقه مالا يحصل لبعض الناس ، مثل من كان مشركا او يهوديا او نصرانيا ، وقد عرف ما فى الكفر من الشبهات والأقوال الفاسدة والظلمة والشر ، ثم شرح الله صدره للاسلام ، وعرفه بحسن الاسلام ، فانه قد يكون ارغَبَ فيه ، واکره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقة الكفر والاسلام ، بل هو مُعَرِّضٌ عن بعض حقيقة هذا وحقيقة هذا ، او مقلد في مدح هذا وذم هذا .

ومثال ذلك من ذاك طعم الجوع ثم ذاق طعم الشبع بعده ، او ذاق المرض ثم ذاق طعم العافية بعده ، او ذاق الخوف ثم ذاق الأمن بعده ، فانَّ محبة هذا ورغبته فى العافية والأمن والشبع ، ونفوره عن الجوع والخوف والمرض اعظمُ ممن لم يُبْتَلْ بذلك ، ولم يعرف حقيقته .

وكذلك من دخل مع اهل البدع والفجور ، ثم بين الله له الحق وتاب عليه توبة نصوحا ، ورزقه الجهاد فى سبيل الله ، فقد يكون بيانه لحالهم وهجره لمساوئهم ، وجهاده لهم اعظم من غيره .

قال نعيم بن حماد الخزاعى — وكان شديدا على الجهمية — انا شديد عليهم ، لانى كنت منهم^(١٥٣) .

(١٥٣) راجع «سير اعلام النبلاء» (٥٩٧/١٠) ، و«تاريخ بغداد» (٣٠٧/١٣) .

وقد قال الله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(١٥٤).

نزلت هذه^(١٥٥) الآية في طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوم عن دينهم ثم تاب الله عليهم ، فهاجروا الى الله ورسوله ، وجاهدوا وصبروا .

وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضى الله عنهما من اشد الناس على الاسلام فلما اسلما تقدما على من سبقهما الى الاسلام ، وكان بعض من سبقهما دونها في الايمان والعمل الصالح بما كان عندهما من كمال الجهاد للكفار والنصر لله ورسوله ، وكان عمر لكونه اكمل ايمانا واخلاصا وصدقا ومعرفة وفراصة ونورا ابعد عن هوى النفس واعلى همة في اقامة دين الله ، مقدما على سائر المسلمين ، غير ابي بكر رضى الله عنهم اجمعين .

وهذا وغيره مما يبين ان الاعتبار بكمال النهاية لابنقص البداية .

وما يذكر في الاسرائيليات : « ان الله قال لداود : اما الذنب فقد غفرناه ، واما الود فلا يعود » فهذا لو عرفت صحته لم يكن شرعا لنا وليس لنا ان نبني ديننا على هذا ، فان دين محمد ﷺ في التوبة جاء بما لم يبيح به شرع من قبله ، ولهذا قال :

«انا نبي الرحمة ، وانا نبي التوبة»^(١٥٦)

وقد رفع به من الآصار والاغلال ما كان على من قبلنا .

(١٥٤) سورة النحل (١١٠/١٦) وفي الاصل «والذين هاجروا» .

(١٥٥) راجع «اسباب النزول» للواحدي (٢٨٨-٢٨٩) و«تفسير الطبري» (١٢٣/١٢٤-١٢٤) .

(١٥٦) اخرج مسلم في «صحيحه» (١٨٢٨/٢) عن ابي موسى الاشعري قال :

(فضيلة التوبة)

وقد قال تعالى في كتابه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾^(١٥٧)

واخبر انه تعالى يفرح بتوبة عبده التائب اعظم من فرح الفاقد لما يحتاج اليه من الطعام والشراب والمركب اذا وجده بعد اليأس . فاذا كان هذا فرح الرب بتوبة التائب وتلك محبته ، كيف يقال : انه لا يعود لمودته :

﴿ وَهَوَّ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ، فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾^(١٥٨)

ولكن وده وجهه بحسب ما يتقرب اليه العبد بعد التوبة ، فان كان ما يأتي به من محبوبات الحق بعد التوبة افضل مما كان يأتي به قبل ذلك كانت مودته له بعد التوبة اعظم من مودته له قبل التوبة ، وان كان انقص كان الامر انقص ، فان الجزاء من جنس العمل ، وماربك بظلام للعبيد .

وقد ثبت في الصحيح^(١٥٩) عن النبي ﷺ انه قال :

« يقول الله تعالى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ »

= كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه اسماء فقال : «انا محمد ، واحد ، والمقفي والحاشر ، وني التوبة ، وني الرحمة » .

واخرجه احمد في «مسنده» (٤٠٤/٤) والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٥٧/١)

(١٥٧) سورة البقرة (٢٢٢/٢)

(١٥٨) سورة البروج (١٤/٨٥-١٦)

(١٥٩) اخرجه البخارى في الرقاق من «صحيحه» (١٩٠/٧)

بالحرب ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَى الْبَانَوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحَبَبْتَهُ كُنْتُ مَعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا : فَبِى يَسْمَعُ ، وَبِى يُبْصِرُ ، وَبِى يَبْطِشُ . . وَبِى يَمْشِي ، وَلَنْ سَأَلْنِي لِأَعْطِيَنَّهُ ، وَلَنْ اسْتَغَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَآكِرُهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ .

ومعلوم ان افضل الأولياء بعد الأنبياء هم السابقون الأولون من المهاجرين والانصار ، وكانت محبة الرب لهم ومودته لهم بعد توبتهم من الكفر والفسوق والعصيان اعظم محبة ومودة ، وكلما تقربوا اليه بالانوافل بعد الفرائض احبهم وودهم .

وقد قال تعالى :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَادِيَتُمْ مِنْهُمْ مُؤَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(١٦٠)

نزلت في المشركين ^(١٦١) الذين عادوا الله ورسوله مثل «اهل الاحزاب» كأبي سفيان بن حرب ، وأبي سفيان بن الحارث ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن ابي جهل ، وصفوان بن أمية ، وغيرهم . فانهم بعد معاداتهم لله ورسوله جعل الله بينهم وبين الرسل والمؤمنين مودة ، وكانوا في ذلك متفاضلين . وكان عكرمة وسهيل والحارث بن

(١٦٠) سورة الممتحنة (٧/٦٠)

(١٦١) راجع «اسباب النزول» (٤٤٩-٤٥٠) وانظر «تفسير ابن كثير» (٣٤٩/٤)

هشام أعظم مودةً من ابى سفيان بن حرب ونحوه ، وقد ثبت في الصحيح^(١٦٣) :

« ان هند امرأة أبى سفيان أم معاوية قالت : والله يارسول الله ! ما كان على وجه الارض أهلُ خباء احبُّ الىَّ ان يَذَلُّوا من اهل خيائك ، وقد اصبحتُ وما على وجه الأرض أهل خباء احبُّ الىَّ ان يَعِزُّوا من اهل خيائك فذكر النبي ﷺ لها نحو ذلك . »

(التوبة وسيلة للمغفرة والمودة)

ومعلوم ان المحبة والمودة التى بين المؤمنين انما تكون تابعة لحبهم لله تعالى ، فان اوثق عرى الايمان الحبُّ فى الله ، والبغض فى الله ، فالحب لله من كمال التوحيد ، والحب مع الله شرك ، قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾^(١٦٣)

فتلك المودة التى صارت بين الرسول والمؤمنين وبين الذين عادوهم من المشركين انما كانت مودة لله ومحبة لله ومن احب الله احبه الله ، ومن ود الله وده الله ، فعلم ان الله احبهم وودهم بعد التوبة ، كما احبوه وودوه ، فكيف يقال : ان التائب انما تحصل له المغفرة دون المودة ؟ ! .

(١٦٢) رواه البخارى فى مناقب الانصار (٢٣٢/٤) وفى الايمان والنذور (٢٢٠/٧) وفى الاحكام (١٠٩/٨) ومسلم فى الاقضية (١٣٢٩/٢ رقم ٩٨٠) والبيهقى فى «دلائل النبوة» (١٠٠/٥) .

(١٦٣) سورة البقرة (١٦٥/٢)

وان قال قائل : اولئك كانوا كفارًا ، ولم يعرفوا ان ما فعلوه محرم ، بل كانوا جهالا ، بخلاف من علم ان الفعل محرم واتاه .

قيل : الجواب من وجهين :

احدها : انه ليس الأمر كذلك ، بل كان كثير من الكفار يعلمون ان محمدا رسول الله ، ويعادونه حسداً وكبراً وابوسفیان قدسمع من اخبار نبوة النبي ﷺ ما لم يسمع غيره ، كما سمع من امية بن ابى الصلت ، وما سمعه من هرقل ملك الروم^(١٦٤) ، وقد اخبر عن نفسه انه لم يزل موقناً ان امر النبي ﷺ سيظهر حتى ادخل الله عليه السلام ، وهو كاره له ، وقد سمع منه عام اليرموك^(١٦٥) وغيره ما دل على حسن اسلامه ومحبة الله ورسوله بعد تلك العداوة العظيمة .

وقد قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ﴾^(١٦٦)

فاذا كان الله يبدل سيئاتهم حسنات فالحسنات توجب مودة الله لهم ، وتبديل السيئات حسنات ليس مختصا بمن كان كافرا ، وقد قال تعالى :

(١٦٤) قصة مقابلة ابى سفيان مع هرقل وعادته معه اخرجها البخارى فى «صحيحه» فى الايمان (٧٠/١) .

(١٦٥) انظر «الاصابة» (١٧٣/٢)

(١٦٦) سورة الفرقان (٧٠-٦٨/٢٥)

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(١٦٧)

قال ابو العالية : سألت أصحاب رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقالوا
لى : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من
قريب^(١٦٨)

الوجه الثانى : ان ما ذكر من الفرق بين تائب وتائب فى محبة الله
تعالى للتائبين فرق لا أصل له ، بل الكتاب والسنة يدل على ان الله يحب
التواين ، ويفرح بتوبة التائبين ، سواء كانوا عالمين بأن ما أتوه ذنباً أو
لم يكونوا عالمين بذلك .

(ما يجب على التائب)

ومن علم ان مآتاه ذنب ثم تاب فلا بد أن يُبَدِّل وصفه المذموم
بالحمود ، فاذا كان يُبْغِض الحق فلا بد أن يُحِبَّه ، واذا كان يُحِبُّ الباطل
فلا بد أن يُبْغِضه . فما يأتى به التائب من معرفة الحق ومحبته والعمل به ،
ومن بغض الباطل واجتنابه هو من الأمور التى يحبها الله تعالى
ويرضاها ، ومحبة الله كذلك بحسب ما يأتى به العبد من محبته ، فكل من
كان اعظم فعلا لمحبوب الحق كان الحق اعظم محبة له ، وانتقاله من
مكروه الحق الى محبوبه مع قوة بغض ما كان عليه من الباطل ، وقوة
حب ما انتقل اليه من حب الحق ، فوجب زيادة محبة الحق له ، ومودته

(١٦٧) سورة النساء (١٧/٤)

(١٦٨) أخرجه الطبري فى «تفسيره» (٢٩٨/٤)

اياه ، بل يبدل الله سيئاته حسنات لانه بدّل صفاته المذمومة بالمحمودة
فَيُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ ، فان الجزاء من جنس العمل ، وحينئذ فاذا
كان اتيان التائب بما يحبه الحق اعظم من اتيان غيره كانت محبة الحق له
اعظم واذا كان فعله لما يوده الله منه اعظم من فعله له قبل التوبة كانت
مودّة الله له بعد التوبة اعظم من مودته له قبل التوبة ، فكيف يقال الود
لا يعود .

وهذا يظهر جواب شبهة من يقول : ان الله لا يبعث نبيا الا من كان
معصوما قبل النبوة ، كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم ، وكذلك
من قال انه لا يبعث نبيا الا من كان مومنا قبل النبوة ، فان هؤلاء
توهموا ان الذنوب تكون نقصا وان تاب التائب منها ، وهذا منشأ غلطهم
فمن ظن ان صاحب الذنوب مع التوبة النصح يكون ناقصا فهو غالط
غلطاً عظيماً ، فان الذم والعقاب الذى يلحق اهل الذنوب لا يلحق
التائب منه شيء اصلا ، لكن ان قدّم التوبة لم يلحقه شيء ، وان أخر
التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب
حاله .

(المبادرة بالتوبة)

والانبياء صلوات الله عليهم وسلامه كانوا لا يؤخرون التوبة ، بل
يسارعون اليها ، ويسابقون اليها ، لا يؤخّرون ولا يصرّون على الذنب بل
هم معصومون من ذلك ، ومن أخر ذلك زمنا قليلا كفر الله ذلك بما
يبتليه به كما فعل بذي النون عليه السلام هذا على المشهور ان القاء كان بعد
النبوة ، واما من قال ان القاء كان قبل النبوة فلا يحتاج الى هذا .

والتائب من الكفر والذنوب قديكون افضل ممن لم يقع في الكفر
والذنوب ، واذا كان قديكون افضل ، فالافضل احق بالنبوة ممن ليس

مثله في الفضيلة ، وقد اخبر الله عن اخوة يوسف بما اخبر من ذنوبهم وهم
الاسباط الذين نبأهم الله تعالى وقد قال تعالى :

﴿ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ ^(١٦٩)

فأمن لوط لابراهيم عليه السلام ثم ارسله الله تعالى الى قوم لوط
وقد قال تعالى في قصة شعيب :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ
يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ
فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ، قَدْ افْتَرَيْنَا
عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ
مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا
وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ ^(١٧٠)

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا
أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ
خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ^(١٧١)

واذا عرف ان الاعتبار بكمال النهاية ، وهذا الكمال انما يحصل بالتوبة
والاستغفار ، ولا بد لكل عبد من التوبة وهى واجبة على الاولين
والآخرين ، كما قال تعالى :

(١٦٩) سورة العنكبوت (٢٦/٢٩)

(١٧٠) سورة الاعراف (٨٩-٨٨/٧)

(١٧١) سورة ابراهيم (١٤-١٣/١٤)

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١٧٢)

(توبة الانبياء)

وقد اخبر الله سبحانه بتوبة آدم ونوح ومن بعدهما الى خاتم المرسلين
محمد ﷺ ، وآخر ما نزل عليه — او من آخر ما نزل عليه — قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ
فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ،
أَنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾^(١٧٣)

وفي الصحيحين^(١٧٤) عن عائشة رض الله عنها ان النبي ﷺ كان يكثر
ان يقول في ركوعه وسجوده :

« سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي » يتأول
القرآن .

وقد انزل الله عليه قبل ذلك :

(١٧٢) سورة الاحزاب (٧٣/٣٣)

(١٧٣) سورة النصر (١١٠)

(١٧٤) اخرج به البخارى في الأذان (١٩٩/١) وفي التفسير (٩٣/٦) ومسلم في
الصلاة (٣٥٠/١) رقم (٤٨٤) وابوداود في الصلاة (٥٤٦/١) رقم (٨٧٧) والنسائي (٢٢٠، ٢١٩/٢) وابن
ماجة (٢٨٧/١) رقم (٨٨٩) واحمد في «المسند» (٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٣/٦) .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ
قُلُوبَ قَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَعُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴾^(١٧٥)

وفي صحيح البخارى^(١٧٦) عن النبي ﷺ انه كان يقول :

« يا ايها الناسُ تَوْبُوا الى رَبِّكُمْ فوالذى نفسى بيده
اننى لأستغفر الله واتوبُ اليه فى اليوم اكثر من سبعين
مرّة . »

وفي صحيح مسلم^(١٧٧) عن الاغر المزنى عن النبي ﷺ انه قال :

« اِنَّهُ لَيُغَانُ على قلبى . وَاِنِّى لأستغفر الله فى اليوم
مائة مرّة . »

وفي السنن^(١٧٨) عن ابن عمر انه قال : كنا نَعُدُّ لرسول الله ﷺ فى
المجلس الواحد يقول :

« رَبِّ اغْفِرْ لى وَتُبْ عَلَيَّ اِنَّكَ انتَ التَّوَّابُ الغَفُورُ »
مائة مرّة .

(١٧٥) سورة التوبة (١١٧/٩)

(١٧٦) فى الدعوات (١٤٥/٧)

(١٧٧) فى الذكر (٢٠٧٥/٣) وانظر تخريجه فى «شعب الايمان» للبيهقى (الشعبة ٤٧)

(١٧٨) اخرجه ابوداود فى الصلاة (١٧٨/٢) رقم (١٥١٦) والترمذى فى الدعوات (٤٩٤/٥) رقم (٣٤٣٤)

وابن ماجة فى الأدب (١٢٥٣/٢) رقم (٣٨١٤) والنسائى فى «عمل اليوم والليلة» (رقم ٤٥٨) .

واخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (١٦٢/٦١٨) وابن حبان فى «صحيحه» (٢٤٥٩)

وفي الصحيحين^(١٧٩) عن ابي موسى عن النبي ﷺ انه كان يقول :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَاسْرَافِي فِي أَمْرِي ،
وما أنت أعلم به مني ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجَدِّي
وخطئي وَعَمَدِي وكل ذلك عندي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي
ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ وما أنت
أعلم به مني . أنت المُقَدِّمُ وأنت المؤخِّرُ ، وأنت على
كل شيء قديرٌ »

وفي الصحيحين^(١٨٠) عن ابي هريرة انه قال : يا رسول الله ارايت
سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول ؟ قال : اقول :

« اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ
المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، اللَّهُمَّ تَقْنِيْ مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنْقِي
الثوبُ الأبيضُ من السدَسِ ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ
خطاياي بالثلجِ والبرَدِ والماءِ الباردِ » .

وفي صحيح مسلم^(١٨١) وغيره انه كان يقول : نحو هذا اذا رفع راسه من
الركوع .

(١٧٩) احرجه البخارى في الدعوات (١٦٦/٧) ومسلم في الذكر (٢٠٨٧/٣ رقم ٧٠)

(١٨٠) احرجه البخارى في الآذان (١٨٠/١) ومسلم في المساجد (٤١٩/١ رقم ١٤٧)

واحرجه ايضا ابوداود في الصلاة (٤٩٣/١ رقم ٧٨١) والسنائي (١٢٩/٢) وابن
ماحة (٢٦٤/١ رقم ٥٠٨) واحمد (٤٩٤/٢)

(١٨١) اخرج مسلم (٣٤٦/١-٣٤٧ رقم ٢٠٤) عن عبدالله بن ابي اوفى ان النبي ﷺ كان يقول :

اللهم لك الحمد ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم
طهّرني بالثلج والبرد والماء البارد ، اللهم طهّرني من الذنوب والخطايا كما ينقى
التوب الأبيض من الوسخ » واهرجه احمد في «المسند» (٣٥٤/٤)

وفي صحيح مسلم^(١٨٢) عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه كان يقول في دعاء الاستفتاح :

« اللهم ! انتَ المَلِكُ لا الهَ إلا انتَ ، انتَ رَبِّي وانا عبدُكَ ، ظلمتُ نَفْسِي وعملتُ سوءا فاغفرْ لي فانه لا يغفرُ الذُّنُوبَ إلا انتَ ، واهدني لأحسنِ الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا انتَ ، وأصرفْ عني سيئها لا يصرفُ عني سيئها إلا انتَ » .

وفي صحيح مسلم^(١٨٣) عن النبي ﷺ انه كان يقول في سجوده :

« اللهم ! اغفرْ لي ذنبي كُلَّهُ دِقَّةَ وَجِلِّهِ ، علانيته وسره ، أوْلِهِ وآخره » .

وفي السنن^(١٨٤) عن علي ان النبي ﷺ اتى بدابة ليركبها وانه حمد الله وقال :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ
وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾

ثم كبره وحده ثم قال :

« سُبْحَانَكَ ظلمت نفسي فاغفرْ لي فانه لا يغفرُ الذُّنُوبَ

(١٨٢) راجع التعليق رقم (٤٠)

(١٨٣) في كتاب الصلاة (٣٥٠/١) رقم (٢١٦) عن أبي هريرة .

وأخرجه ابوداود (٥٤٧/١) رقم (٨٧٨) .

(١٨٤) أخرجه ابوداود في الجهاد (٧٧/٣) رقم (٢٦٠٢) والترمذي في الدعوات (٥٠١/٥) رقم (٣٤٤٦)

والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٠٢) وابن حبان في

«صحيحه» (٢٣٨٠، ٢٣٨١ - موارد) والحاكم في «المستدرک» (٩٨/٢ - ٩٩) وصححه .

والبيهقي في «السنن» (٢٥٢/٥) .

الا انتَ ، ثم ضحك ! وقال ان الربَّ يعجبُ من عبده
اذا قال اغفرلى ، فانه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ الا انتَ ، يقول
عَلِمَ عَبْدِي انه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ الا انا .

وقد قال تعالى :

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾^(١٨٥)

وقال :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ، لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ
مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾^(١٨٦)

وثبت في الصحيحين^(١٨٧) في حديث الشماعة :

« ان المسيح يقول : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له
ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

وفي الصحيح^(١٨٨) :

« ان النبي ﷺ كان يقوم حتى تَرِمَ قدماه ، فيقال
له : اتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك
وما تأخر ؟ قال افلا اكون عبدا شكورا » .

(١٨٥) سورة محمد (١٩/٤٧)

(١٨٦) سورة الفتح (٢-١/٤٨)

(١٨٧) جاءت هذه الحلة في حديث اس احرجه البخارى في التوحيد (١٧٣/٨) ومسلم في
الايمان (١٨٠/١ رقم ١٩٢) واهرجه البيهقى في «شعب الايمان» (رقم ٣٠٢) وراجع تخريجه
هناك

(١٨٨) احرجه البخارى في التفسير من حديث المعيرة وعائشة (٤٤/٦)

ورواه البيهقى في «شعب الايمان» (الشعبة ٣٣)

ونصوص الكتاب والسنة في هذا الباب كثيرة متظاهرة والاشار في ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين كثيرة .

(صدور الذنب من الانبياء)

لكن المنازعون يتأولون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية كما فعل ذلك من صنف في هذا الباب . وتأويلاتهم تبين لمن تدبرها انها فاسدة من باب تحريف الكلم عن مواضعه . كتأويلهم قوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) المتقدم ذنب آدم والتأخر ذنب امته وهذا معلوم البطلان ويدل على ذلك وجوه :

(احدها) أن آدم قد تاب الله عليه قبل ان ينزل إلى الأرض فضلاً عن عام الحديبية الذي انزل الله فيه هذه السورة قال تعالى :

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ، ثُمَّ أَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾^(١٨٩)

وقال :

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾^(١٩٠)

وقد ذكر انه قال :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(١٩١)

(١٨٩) سورة طه (١٢٠-١٢٢)

(١٩٠) سورة البقرة (٢/٢٧)

(١٩١) سورة الاعراف (٧/٢٣)

و (الثاني) ان يقال : فأدم عندكم من جملة موارد النزاع ولا يحتاج ان يغفر له ذنبه عند المنازع فانه نبي ايضا ، ومن قال : إنه لم يصدر من الأنبياء ذنب يقول ذلك عن آدم ومحمد وغيرهما .

الوجه (الثالث) ان الله لا يجعل الذنب ذنباً لمن لم يفعله فانه هو القائل :

﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۖ ﴾ (١٩٣)

فن الممتنع ان يضاف الى محمد ﷺ ذنب آدم ﷺ أو امته أو غيرها . وقد قال تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَحْمِلٌ وَعَلَيْكُمْ مَاحْمِلَتُمْ ۖ ﴾ (١٩٣)

وقال تعالى :

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۖ ﴾ (١٩٤)

ولوجاز هذا الجاز ان يضاف الى محمد ذنوب الأنبياء كلهم ، ويقال : إن قوله :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۖ ﴾ (١٩٥)

المراد ذنوب الأنبياء واممهم قبلك ، فانه يوم القيامة يشفع للخلائق كلهم ، وهو سيد ولد آدم ، وقال :

(١٩٢) سورة فاطر (١٨/٣٥)

(١٩٣) سورة النور (٥٤/٢٤)

(١٩٤) سورة النساء (٨٤/٤)

(١٩٥) سورة الفتح (٢/٤٨)

« انا سيد ولد آدم ولا فخر وآدم فمن دونه تحت لوائى
يوم القيامة ، انا خطيب الأنبياء إذا وفدوا ،
وإمامهم إذا اجتمعوا »^(١٩٦)

وحينئذ فلا يختص آدم باضافة ذنبه الى محمد ، بل تجعل ذنوب الأولين
والآخرين على قول هؤلاء ذنوباً له . فان قال : ان الله لم يعمر ذنوب
جميع الامم ، قيل : وهو ايضاً لم يغفر ذنوب جميع امته .

الوجه (الرابع) انه قدميز بين ذنبه وذنوب المؤمنين بقوله :

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾^(١٩٧)

فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنباً له .

(١٩٦) لم احده بهذا اللمط وروى الترمذى عن اس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ

انا اول الناس حروخاً اذا بعتوا ، وانا حطيمهم اذا وفدوا ، وانا مسترهم اذا ايسوا ،
لواء الحمد يومئذ بيدى ، وانا اكرم ولد آدم على رضى ولا فخر

وقال ابو عيسى هذا حديث حس عريب (٥٨٥/٥ رقم ٢٦١٠)

واخرجه البيهقى فى «الدلائل» (٥٨٤/٥) وذكره الالبانى فى «صعيف الجامع
الصغير» (١٤٠٦) وروى الترمذى عن ابي سعيد (٥٨٧/٥ رقم ٣٦١٥) قال قال رسول الله ﷺ

«اناسيد ولد آدم يوم القيامة ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم
من سواه الا تحت لوائى وانا اول من تستق عنه الارض ولا فخر»

واخرجه احمد (٢/٣) وابن ماجة (١٤٤٠/٢ رقم ٤٣٠٨) وراعى «الصحيحه» (١٥٧١)

واخرج الترمذى ايضاً (٥٨٦/٥ رقم ٣٦١٣) عن ابي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ

«اذا كان يوم القيامة كنت امام السييين وحطيمهم ، وصاحب شفاعتهم ولا فخر»

ورواه احمد (١٣٨٠١٣٧/٥) وابن ماجة (١٤٤٣/٢ رقم ٤٣١٤) والحاكم (٤٠٧١/٢)

(١٩٧) سورة محمد (١٩/٤٧)

الوجه (الخامس) انه ثبت في الصحيح^(١٩٨) ان هذه الآية لما نزلت قال الصحابة يا رسول الله ! هذا لك فما لنا فأنزل الله :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾^(١٩٩)

فدل ذلك على ان الرسول والمؤمنين علموا ان قوله ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ مختص به دون امته .

الوجه (السادس) ان الله لم يغفر ذنوب جميع امته بل قد ثبت ان من امته من يعاقب بذنوبه اما في الدنيا واما في الآخرة ، وهذا مما تواتر به النقل واخبر به الصادق المصدوق واتفق عليه سلف الامة وائمتها ، وشوهد في الدنيا من ذلك ما لا يحصىه الا الله ، وقد قال الله تعالى :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾^(٢٠٠)

والاستغفار والتوبة قديكونان من ترك الافضل . فنقل الى حال افضل مما كان عليه قديتوب من الحال الاول ؛ لكن الذم والوعيد لا يكون الا على ذنب .



(١٩٨) أخرجه البخارى في المغازى (٦٦/٥) ومسلم باختصار في الجهاد (١٤١٣/٢) رقم (٩٧)
وأخرجه الترمذى (٣٨٦-٣٨٥/٥) رقم (٢٢٦٣) واحمد (١٢٢/٣) رقم (١٧٣٠١٣٤٠١٩٧٠٢١٥٠٢٥٢) و
أبو يعلى في «مسنده» (٣٠٨/٥) رقم (٢٩٣٢٣٨٥:٢٩٣٢٣٨٥) رقم (٤٧٢٣٠٤٥) رقم (٣٢٠٤/٦:٢١/٦) رقم (٣٢٥٢)
والطبرى في «تفسيره» (٦٩/٢٦) والواحدى في «اسباب النزول» (٤٠٤-٤٠٥) والبيهقى في
«السنن» (٢٢٢/٩) .

(١٩٩) سورة الفتح (٤/٤٨)

(٢٠٠) سورة النساء (٤/٢٣٣)

فصل (لا بد للمغفرة من التوبة)

وأما قول السائل : هل الاعتراف بالخطيئة بمجرد مع التوحيد موجب لغفرانها وكشف الكربة الصادرة عنها ، أم يحتاج الى شيء آخر ؟ .

فجوابه : ان الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها ، فان الشرك لا يغفره الله الا بتوبة ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾^(١)

في موضعين من القرآن ومادون الشرك فهو مع التوبة مغفور ، وبدون التوبة معلق بالمشيئة . كما قال تعالى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾^(٢)

(١) سورة النساء (٤/٤٨، ١١٦)

(٢) سورة الزمر (٣٩/٥٣)

فهذا في حق التائبين ، ولهذا عم واطلق ، وحث انه يغفر الذنوب جميعا ، وقال في تلك الآية : ﴿ وَيَغْفِرْ مَا دُونَهُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فخص مادون الشرك وعلقه بالمشيئة فاذا كان الشرك لا يغفر الا بتوبة ، وأما مادونه فيغفره الله للتائب ، وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء .

فالاعتراف بالخطيئة مع التوحيد ان كان متضمنا للتوبة أوجب المغفرة ، واذا غفر الذنب زالت عقوبته ، فان المغفرة هي وقاية شر الذنب .

ومن الناس من يقول الغُفْرُ : المتر ، ويقول : انما سمي المغفرة والغفار لما فيه من معنى الستر ، وتفسير اسم الله الغفار بانه الستار ، وهذا تقصير في معنى الغفر ، فان المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب فمن غُفِرَ ذنبه لم يعاقب عليه ، واما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن ، ومن عُوقِبَ على الذنب باطنا او ظاهرا فلم يغفر له ، وانما يكون غفران الذنب اذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب .

وأما اذا ابتلى مع ذلك بما يكون سببا في حقه لزيادة اجره فهذا لا ينافي المغفرة .

وكذلك اذا كان من تمام التوبة ان ياتى بحسنات يفعلها ، فان ما يشترط في التوبة من تمام التوبة ، وقديظن الظان انه تائب ولا يكون تائبا بل يكون تاركا ، والتارك غير التائب ، فانه قد يُعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله او المقتضى لعجزه عنه ، او تنتفى ارادته له بسبب غير ديني ، وهذا ليس بتوبة . بل لا بد من ان يعتقد انه سيئة ويكره فعله لنهى الله عنه ويدعه لله تعالى ، لالرغبة مخلوق وللرهبة مخلوق ، فان التوبة من اعظم الحسنات ، والحسنات كلها يُشترط فيها الاخلاص لله وموافقة امره ، كما قال الفضيل بن عياض^(٣) في قوله :

(٣) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي (م ١٨٧هـ)

﴿ لِيَبْتَلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾^(٤)

قال اخلصه واصوبه ، قالوا يا ابا على ! ما اخلصه واصوبه ؟ قال : انّ العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا . والخالص ان يكون لله ، والصواب ان يكون على السنة .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه : اللهم اجعل على كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا .
وبسط الكلام فى التوبة له موضع آخر .

(الاعتراف فقط لا يكفى)

وأما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا فى نفس الاستغفار المجرد الذى لاتوبة معه ، وهو كالذى يسأل الله تعالى ان يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه ، وهذا يأس من رحمة الله ، ولا يقطع بالمغفرة له فانه داع دعوة مجردة ، وقد ثبت فى الصحيحين^(٥) عن النبي ﷺ انه قال :

« ما من داع يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة »

= من كبار الزهاد ومشايخ الصوفية

له ترجمته فى «طبقات الصوفية» (٤-١١) «الحلية» (٨٤/٨-١٤٠) و«السير» (٤٤٢-٤٢١/٨)

وانظر قوله فى «الحلية» (٩٥/٨) .

(٤) سورة الملك (٦٧/٢)

(٥) لم يخرجاه بهذا اللفظ بل عندهما من حديث ابى هريرة «ستجاب لاحدكم ما لم يعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لى» (البخارى فى الدعوات ١٥١/٧؛ ومسلم فى =

رحم الا كان بينَ احدى ثلاث : اما ان يُعَجَّلَ له
دعوته ، واما ان يُدَخَّرَ له من الجزاء مثلها ، واما
ان يصرف عنه من الشرِّ مثلها ، قالوا يا رسول الله اذًا
نُكْثِر . قال : الله اكثر .

فمثل هذا الدعاء قد تحصل معه المغفرة واذا لم تحصل ، فلا بد ان يحصل
معه صرف شر آخر او حصول خير آخر ، فهو نافع كما ينفع كل دعاء .

وقول من قال من العلماء الاستغفار مع الاصرار توبةً الكذابين ، فهذا
اذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة او يدعى ان استغفاره توبة ،
وانه تائب بهذا الاستغفار فلاريب انه مع الاصرار لا يكون تائباً ، فان
التوبة والاصرار ضدان : الاصرار يضاد التوبة ، لكن لا يضاد الاستغفار

الذكر ٢٠٩٥/٣ رقم ٩٠-٩١) وفي لفظ عند مسلم (رقم ٩٢) «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم
ولا قطيعة رحم ما لم يستعجل . قيل يا رسول الله ما الاستعجال ؟ قال : يقول : دعوت
ودعوت فلم ار يستجيب لي ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»

نعم روى الترمذى في الدعوات من «جامعه» (٥٦٦/٥ رقم ٣٥٧٣) عن عبادة بن الصامت ان
رسول الله ﷺ قال : «ما على الارض مسلم يدعو الله بدعوة الا اياه الله او صرف
عنه من سوء مثلها ما لم يدع باثم او قطيعة رحم» فقال رجل من القوم اذًا نكثرت .
قال : «الله اكثر» .

واخرج احمد في «المسند» (١٨/٣) عن ابي سعيد الخدري رضى الله عنه قال قال رسول الله
ﷺ :

«ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا اعطاه الله بها احدى ثلاث
اما ان تعجل له دعوته ، واما ان يدخرها له في الآخرة ، واما ان يصرف عنه من سوء
مثلها» . قالوا : اذًا نُكْثِر . قال : «الله اكثر» .

واخرجه ابو يعلى في «مسنده» (٢٩٦/٢ رقم ١٠١٩) والحاكم (٤٩٣/١) وصححه ووافقه الذهبي .
 وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤٨/١٠) وقال : رواه احمد وابو يعلى والبخاري
 والطبراني في «الاوسط» . ورجال احمد وابو يعلى واحد اسنادى البخاري رجاله
 رجال الصحيح غير علي بن علي الرفاعي وهو ثقة .

وراجع «فتح الباري» (٩٥-٩٦) .

بدون التوبة .

وقول القائل : هل الاعتراف بالذنب المعين يوجب دفع ما حصل
بذنوب متعددة ام لابد من استحضار جميع الذنوب ؟

فجواب هذا مبني على اصول :

(احدهما) ان التوبة تصحّ من ذنب مع الاصرار على ذنب آخر اذا كان
المقتضى للتوبة من احدهما اقوى من المقتضى للتوبة من الآخر ، او كان
المانع من احدهما اشدّ ، وهذا هو القول المعروف عند السلف والخلف .

وذهب طائفة من اهل الكلام كأبي هاشم^(٦) الى انّ التوبة لاتصحّ من
قبيح مع الاصرار على الآخر ، قالوا : لأن الباعث على التوبة ان لم يكن
من خشية الله لم يكن توبة صحيحة ، والخشية مانعة من جميع الذنوب
لامن بعضها ، وحكى القاضي ابويعلی^(٧) وابن عقيل^(٨) هذا رواية عن احمد ،

(٦) ابوهاشم ، عبدالسلام بن محمد بن عبدالوهاب الجبائي (م ٣٢١هـ)

عالم بالكلام ، من كبار المعتزلة . له آراء انفرد بها . وتبعته فرقة سميت «البهشية» وله
مصنفات .

راجع «تاريخ بغداد» (٥٥/١١) «وفيات الاعيان» (١٨٣/٣) «البداية والنهاية» (١٧٦/١١)
«ميزان الاعتدال» (١٣١/٢) «الفرق بين الفرق» (١٦٩) .

(٧) القاضي ابويعلی ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن احمد البغدادي ،
الحنبلي (م ٤٥٨هـ)

الامام العلامة ، شيخ الحنابلة ، صاحب التصانيف المفيدة في المذهب . انتهت اليه
الامامة في الفقه ، وكان عالم العراق في زمانه مع معرفة لعلوم القرآن وتفسيره .

له ترجمة في «تاريخ بغداد» (٢٥٦/٢) «طبقات الحنابلة» (١٩٣/٢-٢٣٠) «السير» (٨٩/١٨)
«الوافي» (٨-٧/٣) «البداية والنهاية» (٩٥-٩٤/١٢) «شذرات الذهب» (٣٠٧-٣٠٦/٣) .

(٨) ابن عقيل ، ابو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبدالله البغدادي (م ٥١٣هـ)

الامام العلامة ، الحنبلي المتكلم ، صاحب التصانيف . كانه يتوقد ذكاء ، وكان بحر
معارف وكثر فضائل ، لم يكن له نظر في زمنه .

لأن المروذي^(٩) نقل عنه انه سئل عن تاب من الفاحشة وقال : لومرست لم أعذ لكن لا يدع النظر ، فقال احد : اى توبة ذه ؟ قال جرير بن عبدالله سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال :

« اصرف بصرَكَ »^(١٠)

والمعروف عن احمد وسائر الائمة هو القول بصحة التوبة ، واحمد في هذه المسألة انما اراد ان هذه ليست توبة عامة يحصل بسببها من التائبين توبة مطلقا ، لم يرد ان ذنب هذا كذنب المصر على الكبائر ، فان نصوصه المتواترة عنه واقواله الثابتة تنافي ذلك ، وحمل كلام الامام على ما يصدق بعضه بعضا اولى من حمله على التناقض ، لاسيما اذا كان القول الآخر

= قال ابن الاثير : كان قد اشتغل بمذهب المعتزلة في حديثه على بن الوليد ، فاراد الخنابلة قتله ، فاستجار بباب المراتب عدة سنين ثم اظهر التوبة .

له ترجمة في «طبقات الخنابلة» (٢٥٩/٢) «الكامل» في التاريخ (٥٦١/١٠) «السير» (٤٥١-٤٤٣/١٩) «الميزان» (١٤٦/٣) «لسان الميزان» (٢٤٤-٢٤٣/٤) «ذيل طبقات الخنابلة» (١٦٥-١٤٢/١) .

(٩) المروذي = نسبة الى مَرَوْ الرُّوذ ، بلدة حسنة مبنية على وادى مرو . والوادي بالعجمية «رود» فركبوا عن اسم البلد الذى ساؤه في هذا الوادى والبلد اسما وقالوا «مرو الروذ» والنسبة اليها «المرو الروذى» ويقال «المروذى» للتخفيف .

وهو ابو بكر احمد بن محمد الحجاج بن عبد العزيز (م ٢٧٥هـ) صاحب الامام احمد ، والمقدم من اصحابه لورعه وفضله . وكانت امه مروذية وابوه خوارزمية . روى عن الامام مسائل كثيرة .

ترجمته في «تاريخ بغداد» (٤٢٥-٤٢٣/٤) «الأنساب» (٢٠٢-٢٠١/١٢) «طبقات الخنابلة» (٦٣-٥٦/١) «التذكرة» (٦٣٣-٦٣١/٢) «السير» (١٧٦-١٧٣/١٣) «الوافية» (٣٩٣/٧) «شذرات» (١٦٦/٢) .

(١٠) رواه ابوداود في النكاح (٦٠٩/٢) رقم ٢١٤٨ واحد في «المسند» (٣٦١/٤)

واخرجه مسلم في الأدب (١٦٩٩/٢) رقم ٤٥٥ والترمذى في الآداب (١٠١/٥) رقم ٢٧٧٦

واحد في «المسند» (٣٥٨/٤) بلفظ «فامرني ان اصرف بصرى» .

مبتدعا لم يعرف عن احد من السلف ، واحد يقول : إياك ان تتكلم في مسألة ليس لك فيها امام ، وكان في المحنة يقول : كيف أقول ما لم يقل ؟ واتباع احمد للسنة والآثار وقوة رغبته في ذلك ، وكرهته لخلافه من الامور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة .

وماذكروه من ان الخشية توجب العموم .

فجوابه انه قد يعلم قبح أحد الذنوب دون الآخر ، وانما يتوب مما يعلم قبحه .

و(ايضا) فقد يعلم قبحها ولكن هواه يغلبه في احدهما دون الآخر فيتوب من هذا دون ذاك ، كمن ادى بعض الواجبات دون بعض ، فان ذلك يقبل منه .

ولكن المعتزلة لهم اصل فاسد وافقوا فيه الخوارج في الحكم وان خالفوهم في الاسم ، فقالوا : ان اصحاب الكبائر يُخلَدون في النار ولا يخرجون منها بشفاعاة ولا غيرها ، وعندهم يمتنع ان يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يثيبه ، ولهذا يقولون : بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة .

واما الصحابة واهل السنة والجماعة فعلى ان اهل الكبائر يخرجون من النار ويشفع فيهم ، وان الكبيرة الواحدة لا تُحبط جميع الحسنات ، ولكن قد يُحبط ما يقابلها عند اكثر اهل السنة ، ولا يحبط جميع الحسنات الا الكفر ، كما لا يحبط جميع السيئات الا التوبة ، فصاحب الكبيرة اذا أتى بحسنات يبتغى بها رضا الله أثابه الله على ذلك ، وان كان مستحقا للعقوبة على كبريته .

وكتاب الله عزوجل يفرق بين حكم السارق والزاني وقتال المؤمنين بعضهم بعضا ، وبين حكم الكفار في الاسماء والأحكام ، والسنة المتواترة عن النبي ﷺ واجماع الصحابة يدل على ذلك ، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع .

وعلى هذا تنازع الناس في قوله :

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(١١)

فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة الا من اتقاه مطلقا فلم يأت كبيرة ، وعند المرجئة انما يتقبل من اتقى الشرك ، فجعلوا اهل الكبائر داخلين في اسم «المتقين» ، وعند اهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعله خالصا لله موافقا لأمر الله ، فمن اتقاه في عمل تقبله منه ، وان كان عاصيا في غيره ، ومن لم يتقّه فيه لم يتقبله منه وان كان مطيعا في غيره .

(التوبة من بعض الذنوب دون بعض تصحّ)

والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض اذا لم يكن المتروك شرطا في صحة المفعول كالايمان المشروط في غيره من الاعمال ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾^(١٢)

وقال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾^(١٣)

(١١) سورة المائدة (٢٧/٥)

(١٢) سورة الاسراء (١٩/١٧)

(١٣) سورة النمل (٩٢/١٦) وفي الاصل «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنشى...»

وقال :

﴿وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ
فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١٤)

(هل الكافر يحتاج الى توبة ؟)

(الاصل الثانى) ان من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض فان التوبة انما تقتضى مغفرة ماتاب منه ، أما ما لم يتب منه فهو باقٍ فيه على حكم من لم يتب ، ولاعلى حكم من تاب ، وماعلمت فى هذا نزاعا الا فى الكافر اذا اسلم ، فان اسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالاسلام الكفر الذى تاب منه ، وهل تُغفر له الذنوب التى فعلها فى حال الكفر ولم يتب منها فى الاسلام ؟ هذا فيه قولان معروفان .

(احدهما) يغفر له الجميع ، لاطلاق قوله ﷺ :

« الاسلام يهدم ماكان قبله » رواه مسلم^(١٥)

مع قوله تعالى :

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا
قَدْ سَلَفَ﴾^(١٦)

(١٤) سورة البقرة (٢١٧/٢)

(١٥) فى الايمان من «صحيحه» (١١٢/١) رقم (١٩٢)

(١٦) سورة الانفال (٢٨/٨)

(والقول الثاني) انه لا يستحق ان يغفر له بالاسلام الا ماتاب منه .
 فاذا اسلم وهو مصر على كبائر دون الكفر فحكمه في ذلك حكم امثاله من
 اهل الكبائر ، وهذا القول هو الذى تدل عليه الاصول والنصوص . فان
 الصحيحين^(١٧) ان النبي ﷺ قال له حكيم بن حزام يا رسول الله ! أتؤاخذ
 بما عملنا في الجاهلية ؟ فقال :

« من أحسنَ منكم في الاسلام لم يُؤاخذ بما عملَ في
 الجاهلية ، ومن أساء في الاسلام أُخِذَ بالاول
 والآخر . »

فقد دل هذا النص على انه انما ترفع المؤاخذه بالاعمال التي فعلت في
 حال الجاهلية عن احسن لاعن لا يحسن ، وان لم يحسن اخذ بالاول
 والآخر ، ومن لم يتب منها فلم يحسن .

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ
 سَلَفَ ^(١٨) ﴾

يدل على ان المنتهى عن شيء يغفر له ماقد سلف منه ، لا يدل على
 ان المنتهى عن شيء يغفر له ماسلف من غيره ؛ وذلك لان قول القائل
 لغيره : ان انتهيت غفرت لك ماتقدم ، ونحو ذلك يفهم منه عند
 الاطلاق انك ان انتهيت عن هذا الامر غفر لك ماتقدم منه ، وإذا
 انتهيت عن شيء غفر لك ماتقدم منه ، كما يفهم مثل ذلك في قوله :
 « ان تبت » ، لا يفهم منه انك بالانتهاء عن ذنب يغفر لك ماتقدم من
 غيره .

(١٧) رواه البخارى في استتابة المرتدين (٤٩/٨) ومسلم في الايمان (١١١/١) رقم (١٩٠)

واخرجه البيهقي في «شعب الايمان» (٢٣) وانظر تحريجه هناك .

(١٨) سورة الانفال (٣٨/٨)

واما قول النبي ﷺ : « الاسلام يهدم ما قبله » وفي رواية « يَجْبُ ما كان قبله » فهذا قاله لما سلم عمرو بن العاص وطلب ان يغفر له ماتقدم من ذنبه فقال له :

« ياعمرؤ اما علمت ان الاسلام يهدم ما كان قبله ، وان التوبة تهدم ما كان قبلها ، وان الهجرة تهدم ما كان قبلها »^(١٩)

ومعلوم ان التوبة انما توجب مغفرة ماتاب منه ، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب .

(التوبة المطلقة)

(الاصل الثالث) ان الانسان قد يستحضر ذنوبًا فيتوب منها وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه ، لكن اذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنبًا ؛ لأن التوبة العامة تتضمن عزمًا عامًا بفعل المأمور وترك المحذور ، وكذلك تتضمن ندمًا عامًا على كل محذور .

و« الندم » سواء قيل : انه من باب الاعتقادات ، أو من باب الارادات ، أو قيل : انه من باب الآلام التي تلحق النفس بسبب فعل ما يضرها ؛ فاذا استشعر القلب انه فعل ما يضره ، حصل له معرفة بان الذي فعله كان من السيئات ، وهذا من باب الاعتقادات ، وكرهية لما كان فعله ، وهو من جنس الارادات ؛ وحصل له أذى وغم لما كان فعله ؛ وهذا من باب الآلام ، كالغمووم والاحزان ، كما ان الفرح والسرور هو من باب اللذات ليس هو من باب الاعتقادات والارادات .

(١٩) راجع «مسلم» (١١٢/١) رقم (١٩٢)

ومن قال من المتفلسفة ومن اتبعهم : إن اللذة هي ادراك الملائم من حيث هو ملائم ، وإن الألم هو ادراك المنافر من حيث هو منافر فقد غلط في ذلك . فان اللذة والألم حالان يتعقبان إدراك الملائم والمنافر فان الحب لما يلائمه ، كالطعام المشتهى مثلا له ثلاثة احوال :

(احدها) الحب ، كالشهوة للطعام .

(والثاني) ادراك المحبوب ، كأكل الطعام .

(والثالث) اللذة الحاصلة بذلك ، واللذة أمر مغاير للشهوة ولذوق المشتهى ؛ بل هي حاصلة لذوق المشتهى ؛ ليست نفس ذوق المشتهى .

وكذلك « المكروه » كالضرب مثلا . فان كراهته شيء ، وحصوله شيء آخر ، والألم الحاصل به ثالث .

وكذلك ماللعارفين اهل محبة الله من النعيم والسرور بذلك ؛ فان حبهم لله شيء ، ثم ما يحصل من ذكر المحبوب شيء ، ثم اللذة الحاصلة بذلك امر ثالث ، ولا ريب ان الحب مشروط بشعور المحبوب ، كان الشهوة مشروطة بشعور المشتهى ؛ لكن الشعور المشروط في اللذة غير الشعور المشروط في المحبة ، فهذا الثاني يسمى إدراكًا وذوقًا ونيلًا ووجدًا ووصالًا ، ونحو ذلك مما يعبر به عن ادراك المحبوب ، سواء كان بالباطن أو الظاهر ، ثم هذا الذوق يستلزم اللذة ، واللذة امر يحسه الحى باطنًا وظاهرًا .

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح^(٢٠) :

« ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا »

(٢٠) أخرجه مسلم في الايمان (٦٢/١) وراجع «شعب الايمان» للبيهقي (رقم ١٩٥) لتخرجه .

وفي الصحيحين^(٢١) عنه ﷺ انه قال :

« ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حُلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ
كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ سَوَاهِمَا ، وَمَنْ كَانَ
يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجَعَ
فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي
النَّارِ »

فبين ﷺ ان ذوق طعم الايمان لمن رضى بالله ربا ، وبالاسلام دينًا ،
وبمحمد نبيًا ، وانَّ وجَدَ حلاوة الايمان حاصل لمن كان حُبُّه لله ورسوله
اشد من حبه لغيرهما ، ومن كان يُحِبُّ شخصًا لله لالغيره ، ومن كان
يكره ضدَّ الايمان ، كما يكره ان يلقى في النار ، فهذا الحب للايمان ،
والكراهية للكفر استلزم حلاوة الايمان ، كما استلزم الرضى المتقدم ذوق
طعم الايمان ، وهذا هو اللذة ، وليس هو نفس التصديق والمعرفة
الحاصلة في القلب ، ولانفس الحب الحاصل في القلب ، بل هذا نتيجة
ذاك وثمرته ولازم له ، وهى أمور متلازمة ، فلا توجد اللذة الا بحب
وذوق ، وإلا فمن أحب شيئًا ولم يذوق منه شيئًا لم يجد لذة ، كالذى يشتهي
الطعام ولم يذوق منه شيئًا ، ولو ذاق مالا يحبه لم يجد لذة ، كمن ذاق مالا
يريده ، فاذا اجتمع حب الشيء وذوقه حصلت اللذة بعد ذلك .

وان حصل بغضه وذوق البغض حصل الألم ، فالذى يُبغض الذنب
ولا يفعله لا يندم ، والذى لا يُبغضه لا يندم على فعله ، فاذا فعله وعرف
ان هذا مما يبغضه ويضُرُّه ندم على فعله اياه ، وفي المسند عن ابن مسعود
عن النبي ﷺ انه قال :

(٢١) أخرجه البخارى في الاكراه (٥٦/٨) ومسلم في الايمان (٦٦/١) رقم ٦٧-٦٨

وأخرجه البيهقى في «شعب الايمان» (حديث رقم ٤٠١) وانظر تخريجه فيه .

« الندمُ توبةً »^(٢٢).

(التوبة العامة)

اذا تبينَ هذا ، فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها ، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب الا ان يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص ، مثل ان يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه ، لقوة ارادته اياه أو لاعتقاده انه حسن ليس بقبيح ، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة ، وأما ما كان لوحضر بعينه لكان مما يتوب منه فان التوبة العامة شاملته .

وأما «التوبة المطلقة» وهى ان يتوب توبةً مجملة ، ولا تستلزم التوبة من كل ذنب ، فهذه لا تُوجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق ، لكن هذه تصلح ان تكون سببا لغفران المعين ، كما تصلح ان تكون سببا لغفران الجميع ، بخلاف العامة فانها مقتضية للغفران العام ، كما تناولت الذنوب تناولا عاما .

وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة الا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد ، وقد يكون ما تركه من المأمور الذى يجب لله عليه فى باطنه وظاهره من شعب الايمان وحقائقه اعظم ضررا عليه مما فعله من بعض الفواحش ، فإنّ ما أمر الله به من

(٢٢) أخرجه احمد فى «المسند» (١/٣٧٦، ٤٢٣، ٤٣٣) والحاكم (٤/٢٤٣)

وأخرجه البيهقى فى «شعب الايمان» فى باب التوبة وهى الشعبة السابعة والاربعون .
وراجع تخريج الحديث فيه .

حقائق الايمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقا ، اعظم نفعا من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة ، كحبّ الله ورسوله ، فان هذا اعظم الحسنات الفعلية حتى ثبت في الصحيح^(٢٣) : انه كان على عهد النبي ﷺ رجل يُدعى حمّازا ، وكان يشرب الخمر ، وكان كلما أتى به الى النبي ﷺ جَلَدَهُ الحَدَّ ، فلما كَثُرَ ذلك منه أتى به مرّة فأمر بجَلَدِهِ فلغنه رجل فقال النبي ﷺ :

« لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

فنهى عن لعنه مع اصرار على الشرب لكونه يحب الله ورسوله ، مع انه ﷺ لعن في الخمر عشرة :

« لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيتها وحاملها والمحمولة اليه ، وبائعها ومبتاعها وأكل ثمنها »^(٢٤)

ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذي قام به ما يمنع لخوف اللعنة له .

وكذلك «التكفير المطلق» و «الوعيد المطلق» ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطا بثبوت شروط وانتفاء موانع ، فلا يلحق التائب من الذنب باتفاق المسلمين ، ولا يلحق من له حسنات تمحو سيئاته ، ولا يلحق المشفوع له ، والمغفور له ، فان الذنوب تزول عقوبتها التي هي جهنم بأسباب التوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة

(٢٣) رواه البخارى في الحدود من «صحيحه» (١٤/٨)

(٢٤) وأخرجه ابوداود (٨١/٤-٨٢ رقم ٣٦٧٤) وابن ماجه (١١٢١/٢ رقم ٢٣٨٠) والحاكم في «المستدرک» (٣٢/٢) .

—لكنها من عقوبات الدنيا— وكذلك ما يحصل في البرزخ من الشدة ، وكذلك ما يحصل في عرصات القيامة ، وتزول ايضا بدعاء المؤمنين : كالصلاة عليه وشفاعة الشفيع المطاع ، كن يشفع فيه سيّد الشفعاء محمد ﷺ تسلياً .

وحينئذ فأىّ ذنب تاب منه ارتفع موجبهُ ، وما لم يتب منه فله حكم الذنوب التي لم يتب منها ، فالشدة اذا حصلت بذنوب وتاب من بعضها خفف منه بقدر ما تاب منه ، بخلاف ما لم يتب منه ، بخلاف صاحب التوبة العامة .

والناس في غالب احوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم الى ذلك ، فان التوبة واجبة على كل عبد في كل حال ، لانه دائماً يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور ، او ما اعتدى فيه من فعل محظور ، فعليه ان يتوب دائماً ، والله اعلم .

واما قول السائل : ما السبب في ان الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق ؟ وما الحيلة في صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله ؟

فيقال : سبب هذا تحقيق التوحيد : «توحيد الربوبية» و«توحيد الالهية» .

«فتوحيد الربوبية» انه لا خالق الا الله ، فلا يستقل شيء سواه باحداث أمر من الأمور ، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما سواه اذا قدر سبباً فلا بد له من شريك معاون وضد معوق ، فاذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمور طلب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه ، حتى ما يطلب من العبد من الافعال الاختيارية لا يفعلها الا باعانة الله له ، كأن يجعله فاعلاً لها بما يخلقه فيه من الارادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة ، وعند وجود القدرة التامة والارادة الجازمة يجب وجود

المقدور .

فشيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريده ، فإشَاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وما سواه لا تستلزم إرادته شيئا ، بل ما أَرَادَه لا يكون إلا بأمر خارجة عن مقدوره ان لم يُعِنه الربُّ بها لم يحصل مراده ، ونفس ارادته لا تحصل الا بمشيئة الله تعالى ، كما قال تعالى :

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢٥)

وقال تعالى :

﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ، يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾^(٢٦)

وقال :

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ، وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾^(٢٧)

والراجي لخلق طالب بقلبه لما يريده من ذلك الخلق ، وذلك الخلق عاجز عنه ، ثم هذا من الشرك الذي لا يغفره الله ، فمن كمال نعمته وإحسانه الى عباده المؤمنين ان يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم الى التوحيد ، ثم ان وحده العبد توحيد الالهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة .

(٢٥) سورة التكوير (٢٨/٨١-٢٩)

(٢٦) سورة الدهر (٢٨/٧٦-٢٩)

(٢٧) سورة المدثر (٧٤/٥٦-٥٥)

وان كان من قيل فيه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٨)

وفي قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ ، فَلَمَّا نَجَّاکُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ (٢٩)

كان ما حصل له من وحدانيته حجة عليه .

كما احتج سبحانه على المشركين الذين يقرون بانه خالق كل شيء ثم يشركون ولا يعبدونه وحده لا شريك له ، قال تعالى :

﴿ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ ، قُلْ : أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ ، قُلْ : أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ قُلْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ ، قُلْ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (٣٠)

(٢٨) سورة يونس (١٢/١٠)

(٢٩) سورة الاسراء (٦٧/١٧)

(٣٠) سورة المومنون (٨٩-٨٤/٢٣)

وقال تعالى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾^(٣١)

وهذا قد ذكر في القرآن في غير موضع .

فن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين ان يُنَزِّلَ بهم الشدة والضُرَّ وما يلجئهم الى توحيده فيدْعُوْنَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، ويرجونه لا يرجون احداً سواه ، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره ، فيحصل لهم من التوكل عليه والانابة اليه . وحلاوة الايمان وذوق طعمه ، والبراءة من الشرك ما هو اعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف ، أو الجذب ، أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة ، فان ذلك لذاتٌ بدنية ونعمٌ دنيوية قد يحصل للكافر منها اعظم مما يحصل للمؤمن .

واما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من ان يُعْبَرَّ عن كنهه مقالاً ، أو يَسْتَحْضَرَ نَفْضِيلَهُ بِالْ ، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر ايمانه ، ولهذا قال بعض السلف : يا ابن آدم ! لقد بورك لك في حاجة اكثرت فيها من قرع باب سيدك .

وقال بعض الشيوخ : انه ليكون لى الى الله حاجة فأدعوه فيفتح لى من لزيد معرفته وحلاوة مناجاته ما لا احب معه ان يُعَجَّلَ قضاء حاجتى خشية ان تنصرف نفسى عن ذلك ؛ لأن النفس لا تريد الا حظها فاذا قضى انصرف .

(٣١) سورة العنكبوت (٢٩١-٢٩٢)

وفي بعض الاسرائيليات يابن آدم ! البلاء يجمع بيني وبينك ،
والعافية تجمع بينك وبين نفسك .

وهذا المعنى كثير ، وهو موجود مذوق محسوس بالحس الباطن
للمؤمن ، وما من مؤمن الا وقد وجد من ذلك ما يعرف به مذكرناه ،
فان ذلك من باب الذوق والحس لا يعرفه الا من كان له ذوق وحس
بذلك .

ولفظ « الذوق » وان كان قديظن انه في الاصل مختص بذوق اللسان
فاستعمله في الكتاب والسنة يدل على انه اعم من ذلك مستعمل في
الاحساس بالملائم والمنافر ، كما ان لفظ « الاحساس » في عرف الاستعمال
عام فيما يحس بالحواس الخمس ، بل وبالباطن .

واما في اللغة فأصله « الرؤية » كما قال :

﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾^(٣٢)

و (المقصود) لفظ « الذوق » قال تعالى :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾^(٣٣)

فجعل الخوف والجوع مذوقاً ؛ و اضاف اليهما اللباس ليشعر انه لبس
الجائع والخائف فشملة واحاط به احاطة اللباس باللباس ؛ بخلاف من
كان الألم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع ، وقال تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾^(٣٤)

(٣٢) سورة مريم (٩٨/١٩)

(٣٣) سورة الحل (١١٢/١٦)

(٣٤) سورة الصافات (٣٨/٣٧) وفي الاصل «مذوقوا العذاب الاليم» وليس في القرآن . نعم فيه
«نذقه من عذاب اليم» (٢٥/٢٢)

وقال تعالى :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾^(٣٥)

وقال تعالى :

﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾^(٣٦)

وقال :

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ ﴾^(٣٧)

وقال تعالى :

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا
وَعَسَاقًا ﴾^(٣٨)

وقال :

﴿ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَذَى ذُوْنَ الْعَذَابِ
الْأَكْبَرِ ﴾^(٣٩)

وقد قال النبي ﷺ :

« ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربًا وبالا سلام دينًا

(٣٥) سورة الدخان (٤٩/٤٤)

(٣٦) سورة القمر (٥٤/٤٨)

(٣٧) سورة الدخان (٤٤/٥٦)

(٣٨) سورة النبا (٧٨/٢٤-٢٥)

(٣٩) سورة السجدة (٣٢/٢١)

وبمحمد نبياً^(٤٠)

فاستعمال لفظ « الذوق » في ادراك الملائم والمنافر كثير . وقال النبي ﷺ :

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان »^(٤١) كما تقدم ذكر الحديث .

فوجود المؤمن حلاوة الايمان في قلبه وذوق طعم الايمان امر يعرفه من حصل له هذا الوجد .

وهذا الذوق ، اصحابه فيه يتفاوتون ، فالذى يحصل لاهل الايمان عند تجريد توحيد قلوبهم الى الله واقبالهم عليه دون ماسواه بحيث يكونون حُفَاءَ له مخلصين له الدين ، لا يُحِبُّون شيئاً الا له ، ولا يتوكلون الا عليه ، ولا يوالون الا فيه ، ولا يعادون الا له ، ولا يسألون الا اياه ، ولا يرجون الا اياه ، ولا يخافون الا اياه ، يعبدونه ويستعينون له وبه ، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق ، وعند الخلق بلا هوى ؛ قد فنيت عنهم ارادة ماسواه بارادته ، وعجبة ماسواه بمحبته ، وخوف ماسواه بخوفه ، ورجاء ماسواه برجائه ، ودعاء ماسواه بدعائه ، هو امر لا يعرفه بالذوق والوجد الا من له نصيب ، وما من مؤمن الا له منه نصيب .

وهذا هو حقيقة الاسلام الذى بعث الله به الرسل ، وانزل به الكتب وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه . والله سبحانه اعلم .



(٤٠) راجع التعليق رقم (٢٨٤)

(٤١) انظر التعليق رقم (٢٨٥)

فهرس المباحت

٥	١ كلمة الناشر
٧	٢ سئل شيخ الاسلام
٨	٣ معنى «الدعاء»
١٠	٤ الدعاء والصلاة
١٢	٥ المسألة والعبادة
١٢	٦ الخوف والرجاء
١٤	٧ العزائم تنفسخ عند وجود الحقائق
١٥	٨ ادعاء الصوفية المحو والفناء
١٦	٩ الدعاء عبادة ومسألة
١٨	١٠ وجوه مختلفة للمسألة
٢٠	١١ احسن طريق للسؤال
٢٢	١٢ خصائص أدعية القرآن
٢٣	١٣ لماذا كان دعاء ذى النون بصيغة الخبر؟
٢٣	١٤ تفسير «سبحانك»
٢٥	١٥ معنى «لااله الا انت»
٢٧	١٦ افضل الكلام عندالله
١١٠-٢٣	فصل
٢٣	١٧ «لم كانت كاشفة للكرب؟»
٢٤	١٨ الرجاء من الله وحده

٣٨	١٩ الدعاء لا يصلح إلا لله
٤٠	٢٠ الاخلاص في الدين
٤٢	٢١ الصلة بين التوحيد والاستغفار
٤٥	٢٢ توحيد الالهية وتوحيد الربوبية
٤٧	٢٣ الفرق بين الحب لله والحب مع الله
٤٨	٢٤ طاعة الرسول هي طاعة الله
٥٠	٢٥ معنى «الايمان»
٥٨	٢٦ الدين لا يكمل الا بالعمل
٥٩	٢٧ تنوع دلالة الفاظ القرآن
٦٢	٢٨ تحقيق توحيد الالهية
٦٣	٢٩ الفرق بين الرياء والعجب
٦٦	٣٠ مال الله ورسوله ما يصرف في طاعة الله ورسوله
٦٧	٣١ دلائل خطأ رأى الفقهاء
	٣٢ العبادة والسؤال وسيلتان لتحقيق توحيد الالهية وتوحيد
٧٠	الربوبية
٧١	٣٣ الله والرب
٧٨	٣٤ عصمة الأنبياء
٧٩	٣٥ تنفيذ قصة الغرانيق
٨٥	٣٦ توبة الأنبياء واستغفارهم
٨٨	٣٧ خطأ المفسرين
٩١	٣٨ العبرة بالعاقبة في الأفضلية
٩٥	٣٩ فضيلة التوبة
٩٧	٤٠ التوبة وسيلة للمغفرة والمودة
٩٩	٤١ ما يجب على التائب
١٠٠	٤٢ المبادرة بالتوبة
١٠٢	٤٣ توبة الأنبياء
١٠٧	٤٤ صدور الذنب من الأنبياء

١٣٢-١١١

فصل

١١١

٤٥ «لابد للمغفرة من التوبة»

١١٣

٤٦ الاعتراف فقط لا يكفي

١١٨

٤٧ التوبة من بعض الذنوب دون بعض تصح

١١٩

٤٨ هل الكافر يحتاج الى توبة ؟

١٢١

٤٩ التوبة المطلقة

١٢٤

٥٠ التوبة العامة

١٣٥-١٣٣

٥١ فهرس المباحث



صدر أخيراً
من « الدار السلفية »
الجزء الثانى من الموسوعة الحديثية الكبيرة
« الجامع لشعب الايمان »
للامام الحافظ ابى بكر احمد بن الحسين
البيهقى (م ٤٥٨هـ)
بالتحقيق العلمى والتعليقات النافعة
وتخرج الاحاديث .
والجزء الثالث منه تحت الطبع



مطابع دارالاسلاميه

